فؤاد يازجي

فرصة للسراب

من أدب الرحلات

❖ فؤاد يازجي.
❖ البريد الإلكتروني fsyazji@hotmail.com
❖ الطبعة الأولى 2007.
❖ عدد النسخ /1000/ نسخة.
❖ حقوق طبع الألف نسخة الأولى لـ محمد نذير الزيات.
❖ جميع الحقوق محفوظة للمؤلف.

لقد ذوى لون الزهرة
وأنا أتأمل وجهي عبثاً يعبر الأرض
أغنية يابانية

الفصل الأول

----------1---

مثلما يقول المثل الإنكليزي: "المفلس يهرع دائماً إلى السوق"، هكذا وجدت نفسي في ساحة البيكاديلّي حالما وصلت إلى لندن.

كنت في السابعة والثلاثين من العمر، وقد أضعتُ مالي ووطني وشبابي أشعر مبكراً بالشيخوخة تطرق بابي، عندما وجدت نفسي في بلد غريب ليس بلا نقود ولا معارف فقط بل بلا هوية أيضاً، مهاجراً معدماً مذعوراً، ليس في جيبه ما يكفيه أكثر من أسبوع.

بدأت أجوب مركز المدينة بحثاً عن عمل يسد الرمق، وكانت قد بدت لي من نافذة الطائرة في الليلة الماضية وسط العتمة، جوهرة هائلة من الأنوار والضياء، تتلوى داخلها قطارات أشبه بالحيات تنزلق فوق جسور مضيئة تشع بالنيران، وحافلات تعبر كالنقط كنجوم ذهبية في بريق المدينة المكهربة. وتتخللها فجوات معتمة ضخمة من المنتزهات والأشجار، وقد انعكس القمر على صفحة التايمز: وقلت غداً أصبح إحدى النمال ضائعاً وحيداً بين الأبراج والنهر والحانات.

لم أنم بعيداً عن ساحة البيكاديلّي، فبدت لي المدينة فاخرة أنيقة متكبرة، أضفى عليها الخريف مسحة من السحر، كانت الأوراق الصفراء تلون الأرصفة الممطرة، وتتهادى في الضباب من الأغصان المبللة، وكانت الأبنية العالية فخمة رومانسية الطراز، من القرون الغابرة. وأخرى حديثة يلتمع زجاجها ويتلون حسب طيات الغيوم التي في السماء. وبدت لي النساء سعيدات فخورات مرفوعات الرأس، والرجال أشبه بلوردات، سحنا تهم مشرقة فرحة واثقة.. ومع ذلك شعرت بأنني حزين حتى الموت.

كم من الحقائب كان علي أن أرفع، كم من ا لصحون كان علي أن أغسل، كم من الرعب والشقاء سيكتنفني في هذه السن بعد أن بددت نقودي وشعرت بالرخاء!؟ كيف لهذه النفس أن تصمد أو لهذا البدن الذي فارقه الشباب أن يصبر!؟ ومع ذلك كان عزائي الوحيد تلك المدينة الساحرة الماجنة المتلألئة.

وقد خاب أملي إذ ظننت أن في مركز المدينة عملاً لمثلي، ففي كل حانة أو مطعم أو فندق كانوا يطلبون أوراقاً رسمية، وصرت أتخبط، والوقت يضيع، والمطر يتساقط ويصحو ثم ينهمر فأضطر إلى الانزواء. حتى عثرت على مظلة مرمية، ففرحت بها كثيراُ. وتابعت سيري إلى ساحة الترافغلر ومن هناك إلى محطة فيكتوريا ثم وجدت نفسي في شارع أكسفورد حين هبط المساء. وكان كل ما فعلته عبثاً حيث أَسَرَّ لي مصري أنني لن أحصل على عمل في وسط لندن حيث

فروع الشركات العملاقة للمطاعم والفنادق والملاهي هي التي تسيطر وتطلب دائماً أوراقاً، وربت على ظهري عندما علا اليأس تعابيري قائلاً "لا تستعجل إن لندن أشبه بمرجوحة أتوماتيكية تدور، ما إن ينزل المرء فيها حتى يبدأ بالدوران، ويظل على هذا النحو حتى يموت". ومضى وكانت أنوار الحافلات والسيارات ومصابيح الطرقات تضيء الرذاذ المتساقط، وتجعل الأرصفة تلتمع حتى لترى وجهك في صفحتها، عندما لمحت إعلاناً ملصقاً على شجرة، فاقتربت وقرأت فوجدت صاحبه يبحث عمَّن يتبنّى قطته لأنه سيغادر البلاد لمدة سنة. وتذكرت أنني لم أُطعم منذ الصباح، وكان المكدونالد بجانبي وبحذاء واجهته قد افترش الأرض أحد الشحاذين وكلبه، وقد وضع سماعات مسجل صغير في أذنيه، وطفق يقرأ في كتاب وهو يدخن ويشرب البيرة.. وعندما خرجت من المطعم وجدت صديقته وقد رقدت بجانبه بأسمال مهترئة، فما إن رأتني أقترب حتى مدت لي يدها بالحذاء ساخرة فوضعت لها فيه بنساً فشكرتني ومضيت. وكنت قلقاً أشد القلق أسأل نفسي هل تنفذ النقود وأتسول مثلهما؟ وشعرت بالبرد يجتاحني وكان المطر قد توقف، ولم تكن في السماء نجمة واحدة: لاشك أن الشمس لن تشرق غداً دمدمت في نفسي، ودخلت عدة حانات صغيرة بحثاً عن عمل، بلا جدوى. وسألت كثيراً من عمال المطاعم السود والآسيويين فكانوا لا يفهمون لهجتي في البداية، وما إن ينتبهوا إلى ما أود قوله حتى يهزون رؤوسهم نفياً.. ولا أدري كيف وجدت نفسي في سوهو، وقد بدت مصابيح حمراء تضيء غرف العاهرات، وكثير من

المتسولين نائمين على الأرصفة وبجانبهم علب بيرة كثيرة فارغة، وقد علت سواعدهم آثار حقن الهيروئين. وكانت تلك المشاهد تزيد في ذعري. وما إن وصلت إلى البيكاديلّي من جديد حتى كنت أترنح من التعب واليأس والخوف. وتناهى إلى سريري من نافذة الغرفة صوت ساعة "بيغ بن" تعلن الثانية عشرة، ونمت وفمي يدمدم في خفوت أغنية لماجدة الرومي:

إن شئتُ أرحل ... لن أعود إلى سراب
وأهيمُ في دنيايَ ... أحترف الغياب

----------2---

كنت قد بددت كل ما أملك من نقود حتى لم يبق معي سوى أجرة طائرة الرحيل، ومئتي دولار لن تكفيني أكثر من ستة أيام يائسة أخرى. وفي الوقت الذي كنت أنتظر فيه المطر أن يكف عن التهطال تساقط الثلج الصباح التالي، فجلست قرب النافذة أرنو إليه وهو يكسو تماثيل المدينة وقرميدها وكنائسها، ويحولها إلى أبراج من ملح، متذكراً حياتي من أولها.

إنها أشبه بقصة رواها طاغور من أن أميراً كان ينوي التجوال بإحدى القرى مع موكبه وحاشيته، فما إن سمعت بذلك صبية صغيرة حتى طاش صوابها، فأخذت تفتش المنزل عما تلقيه أمام جواده عندما يمر بين حشوده. فلم تعثر على شيء، وتناهى إليها أصوات العربات والناس والهتاف ففتحت نوافذ البيت ورنت إليهم وهي تطير من الفرح، ثم تذكرت أن لديها عقداً من اللؤلؤ ولا تملك غيره، فأسرعت وأحضرته، وعندما مر الأمير تحت نافذتها بحصانه الأبيض وموكبه الجليل فقدت صبرها ورمت العقد أمامه فرحة مسرورة. فقالت لها أمها فيما بعد:

- ولكنه عقد ثمين وأنتِ لا تملكين غيره.

- أعرف يا والدتي ولكن عندما رأيت مشهد الأمير المهيب لم أبخل عليه بكل ما لدي.

- وقد لا يكون رآه وضاع تحت الأقدام.

- نعم يا أمي ولكن كنت مجنونة من الفرح وأنا أنظر إلى الأمير.

هذا بدقة كل ما حدث معي: عندما رأيت المطلق يلوح أمامي من بعيد، عندما تراءى لي الإله وآخر حدود الفرح، عندما خيل إلي أن بإمكاني أن أسمو وأصل إلى أعلى طابق للحب، أخرجت كل ما في جيبي وبددته.

لقد انقضت أيامي وسنيني أنظم قصائداً وأقرأ وأحلم، فمنذ كنت مراهقاً كانت تجتاح مشاعري رعشات مضيئة تجعلني سكراناً، وكانت تلك الخلجات الغريبة توحي إلي بحلم طالما حيرني: هل أنا موهوب؟.. ما الذي يجعل عيناي تدمع عندما أنظر إلى السحب أو النار أو النجوم؟.. ولكنني لم أجرؤ أبداً أن أفكر أنه يمكنني أن أصبح شاعراً. وهاأنا أغدو شاعراً.. فلماذا إذن أبكي؟.. إن أحلامي تتحقق فلم إذن هذه الحسرة.؟

ما إن صرت شاعراً حتى كف الناس عن القراءة.. وانحدر العالم الثالث نحو هاوية الفقر: الكساد الاقتصادي، التفجر السكاني، سعر الكتاب، التلفاز، الفيديو، السينما، الستلايت، الإنترنيت، أخذت تودي بأعداد القراء نحو الصفر. لم أكن أعبأ بالمال أو أطلب ثمناً للفضيلة: كنت أقول لنفسي ألم أُطعم من هذه الطبيعة، ألم أشرب

منها، ألم أتنفس من هوائها، ألم أسر بين بساتينها ومروجها أثناء الكتابة؟ حسناً لقد أخذت حقي إذن، هل كان الشعراء أغنياء في يوم من الأيام، ألم يعمل معظمهم بلا أمل؟

فعندما نشرت ديواني الأول كنت مسحوراً، ما إن يمدح أحدهم قصائدي حتى أحس بتلك النشوة التي تنتاب المرأة عندما يقولون لها أنت أجمل نساء الحي، وكما أن المرأة ترغب في أن يطيل الرجل في مدحها هكذا كنت أطيل استفسارهم وحديثهم. وكنت أقول اتبع ما يمليه عليه قلبك ولا تخف، ودائماً كان يعود إلى خاطري أولئك الفنانون المتوحشون قبل مجيء الحضارات جميعاً، وكيف يستلقون على ظهورهم في الكهوف ويرسمون على السقوف والجدران ما يشاهدونه من حيوانات وجبال وأشياء، تثير خوفهم أو دهشتهم، ألم يعملوا أيضاً بلا أمل؟

لم يكن هناك شيئاً آخر يمكن أن يسعدني، لم تعد تهمني سوى الحقيقة. فقد شبعت من أصدق أنواع الكذب. لقد سلكت كل الدروب ولم تصل بي إلا إلى الباطل، لذلك لم أتبع بعدها سوى طريق حقيقي يجعلني أشتعل، يجعلني إنساناً، ببساطة يجعلني سعيداً حتى ولو كان على حبل فوق هاوية. وكنت أعلم أن الكساد المقبل على العالم الثالث سيجعل المثقفين في العشرين سنة القادمة ينحدرون ليس فقط إلى قراءة الكتب الدينية التي توقفوا عندها الآن وإنما إلى قاع آخر من التنجيم والسحر. كنت أدري تماماً أن شاعراً موهوباً لن يعني لأحد شيئاً في المستقبل. ولكن كنت آمل أن أُقرأ بعد ألف سنة أو ألفين أو

خمسمائة وأن أفيد الأرض بشيء بسيط على قدر استطاعتي. كنت راضياً بأن كتبي ليست سوى هدية للزمن، وكان ذلك في اليوم الذي استراحت فيه دواويني للأبد في أقبية مكتبة الأسد. ولكن راودني في ليلة مسكونة بالأشباح والوحدة واليأس أن هذا الأمل أيضاً قد يكون باطلا وقد تحرق المكاتب وترمى ثانية في نهر دجلة وتصطبغ مياهه بالحبر، ورافق تلك الليلة مرور مذنب باتجاه المشتري وصدمه له محدثاً انفجاراً نووياً هائلاً وفجوة مقدارها /120/ كم، فترديت في قنوط رهيب من العذاب لم يعرفه أحد غيري على هذه الأرض. وذات صباح، وكنت في القرية، رأيت ثمرة تين ناضجة تسقط من أعلى الشجرة وتُسحق تحت أقدام أحد المارة، كم حزنتّ: كم لوحتها الريح ولفحها المطر وأشرقت فوقها الشمس، وشعرت بقليل من العزاء: هل أنا أفضل من ثمرة التين تلك؟.

في السنين التي حققت فيها أقصى أحلامي شعرت بأعظم اليأس. ومع ذلك رددت ذات صباح مشرق: لا بأس.. هذا هو العصر الذي يليق بمثلي.. ولا أقبل بأقل ضراوة من ذلك.. عصر العنيدين الذين يعملون بلا أمل. ولكن تارةً أخرى كنت أشتهي الموت، ويراودني حنين إلى الزوال.

نعم كان يعتريني شعور بالخيبة يشبه الموت، فأردد لنفسي لو أنني أنفقت السنين الماضية في جمع المال كم كان ليكون في حوزتي الآن؟ لقد كنت أملك طاقة تزحزح الجبال، وتوقف الرياح... ولكنني سرعان ما أتذكر القول: إذا تخليت عن شبابة الفن لا يبقى من الحياة إلا

سمّها[1] أو ترن في أذني عبارة بودلير: أكثر من زهرة تريق عطورها المنعشة في الخفاء على الأماكن الموحشة. أو يُقرَعني نيتشه: إن أذكى الناس في هذا الزمان يتساءلون عما يحفظ حياة الإنسان، أما أنا فإن الإنسان الأعلى هو قبلة أنظاري.

منذ ديواني الأول، كانت ردة فعل جميع الذين أهديتهم نسخاً مجانية دهشة صادقة، كأن أعينهم لم تصدق أن أكون أنا من كتب كل تلك المشاعر.. ولكن بعد فترة يتكشف لهم أن كل هذا ليس سوى مشروع يائس وغامض ويتمنون لو أنني لم أبدأ به. أو في الحقيقة كانوا ينقسمون قسمين أحدهما يردد دع كل شيء وفكر في المستقبل غافلين عن مشاعري وأفكاري وأحلامي، والثاني يتحمس قائلاً لا تترك الكتابة أبداً حتى وأنت تحتضر، غافلين عن الطريقة التي سأقتات منها.

وفي الوقت الذي كنت أنتظر أن يقول لي والدي لقد أنجبت رجلاً نبيلاً حقاً، حفيداً حقيقياً لعائلتنا، أقول عندما كنت أنتظر بعد كل الجهود التي بذلتها مثل هذا التشجيع كان هو ينظر إلي نظرة احتقار كأنه يقول: لقد فشلت فشلاً ذريعاً في أن تصبح مليونيراً. ولم يقرأ لي شيئاً. إنه هو بذاته الذي أوحى لي بالفضيلة وترك في داخلي أعمق الأفكار الإنسانية. لقد كان يردد على مسامعي دائماً منذ كنت في السابعة من العمر: "من يتعلم ينتصر على العالم"، وهاأنا بعد ثلاثين عاماً من القراءة أجد العالم قد انتصر علي، وهاهو وقد اختلفت آماله

1- شارلوت برونتي.

أصبح أشد الناس علي وأكثرهم نزقاً. إنه يحلم الآن بأن أصبح مديراً لشركة حكومية ثم أختلس منها بضعة ملايين فأشتري بيتاً ومزرعة وسيارة وهوذا تعريف الإنسان الأعلى في هذا الزمان.

أما والدتي فكانت تقرأ وتجاملني ولكن لم تكن بينها وبين نفسها تستقبل كل هذا إلا بفتور من يقول إن ابني لا يزال فقيراً وبالتالي فهو لا يساوي شيئاً. وكانت أختي دائمة الصراخ: لو كنت مكانك لشعرت بالخجل من أنني لا أملك عشر شقق في هذا السن. ولم يكن بإمكان سوى أمي من لجم غضبهما عني حيث كانت دائمة الترديد لا أحد يستطيع أن يغير أحداً وشجرة العنب لا تثمر تفاحاً. ولم أكن أفهم لماذا علي أنا بالذات أن أصبح مليونيراً دوناً عن غيري؟.. لقد كانوا يُعولون كثيراً على ذكائي وقد خاب ظنهم إذ استخدمته في طريق تافه كل هذه التفاهة. وكنت أردد بيني وبين نفسي يا شجر الشوك الذي حولي لم أعثر بينكم أبداً على براعم تنتظر الربيع.

كان الكل يثير اشمئزازي، إن أرواحهم تتدهور ويغدون مقيتين، ويفقد المجتمع معظم فتنته، فأينما نظرت عوام وعوام وعوام، لا ثقافة سامية لا كلام من القلب لا فرح أعلى. وكان عزائي الوحيد هؤلاء المراهقين المنشغلين بالحب والذين يبدون ضاحكين معظم الأحيان، وكانوا يغدون ويجيئون كل يوم في شارع الحب قرب منزلنا، وكلما كان الشبان أصغر والفتيات مراهقات شعرتَ بالسعادة تنضح من الوجوه وبالملائكة ترف فوق الجباه، وكانت أفراحهم تعود بي صغيراً سعيداً محباً.

وكنت أتذكر غالباً قول الكتنجي: نحن في زمان رأى العقلاء قلة منفعة العقل فتركوه، وكثرة منفعة الجهل فلزموه، فبطل هؤلاء لما تركوا، وهؤلاء لما لزموا، فلا ندري مع من نعيش!. ومع ذلك لم أكن في كثير من الأحيان يعتريني الحزن: كنت أقول لنفسي هبهم قرأوا كتبي وأصبحت مشهوراً إنهم لن يقولوا في النهاية سوى أنه شاعر يحسن الكتابة.. أي ببساطة صاحب كار، من سيفهم كل شيء؟ من سيدرك أعماقي وصدقي وحبي؟ من سيصدق مغامراتي وصبري وبأسي؟ من سيعرف أسراري وأفراحي ومحبتي؟ إنني لست سوى نجمة بعيدة بعيدة لن يصل نورها إلى الأرض إلا بعد أن تكون قد انطفأت، عندها فقط يقول الناس هاهو خالد حي إن النور يتدفق منه. ولكن ذات ليلة، في يوم تهب فيه رياح شتائية مسعورة، وجدت نفسي قرب غدير بين البساتين أتساءل مصعوقاً: ما معنى أنه لم يعد أحد يقرأ؟.. ما معنى أننا نتدحرج إلى القاع؟.. وتلك الأحلام والتساؤلات الكبيرة والهيام الذي بُنيت على أساسه حياتي.. هل أطفئه؟ هل يمكن مثل هذا أن يطفأ؟ هل أنسى الحب القديم؟ هل أنسى ضحكات الفتيات التي أوحت لي بالخلود؟ هل أنسى التلال والغسق والشجر؟.. كم من الدموع والحب والمغامرة ضمختهم كتبي؟ وتناهى إلي في العتمة خرير المياه السوداء، فجلست تهيم بي الرياح والقمر وأشباح الساقية وقد بقي قليلاً جداً لكي أبكي: وقلت "سأنتحر" وحزنت جداً، ثم رددت: بل سأسافر.

لقد تذكرت تلك الليلة نفسي صغيراً وقد أفرحتني جداً كرة ملونة عند بائع، فعدت إلى البيت فرحاً وأخذت أجمع نقوداً من أبي وأمي وإخوتي، ورجعت إلى البائع ووضعت أمامه كل النقود دون أن ألقي أي تحية، أو أعلم ثمن الكرة، وأخذتها وانصرفت سعيداً. هكذا فعلت عندما كبرت أيضاً! تماماً مثل قصة طاغور!

كنت قد غدوت شؤماً على الجميع، فلم يبق معي أكثر من نقود السفر، وصرت أنام على جرح وأستيقظ على جرح، يرشقني الناس بكلام تضمحل به ثقتي واعتزازي، حتى بتُّ أتسائل هل لا أزال إنساناً حقاً بعد أن فقدت نقودي؟ أصبحت بحاجة إلى رجل واحد يشدد أزري، يقول لي إنني راض عنك، لا تنم، إن الدروب حالكة، طريقك من شوك ولكن من صلاح، كنت بحاجة إلى مثل هذا القوي، ولكن عبثاً ِِلم يكن حولي سوى العوام والآليين أو المترفين، لم يكن حولي سوى الإنسان الصغير. بتُّ وجهاً لوجه أمام قدري يقول لي ها أنت الآن بدون نقود، فلنر كيف تتدبر أمرك، لنر إلى أية جزيرة في أصقاع العالم سترحل! ولكن لا تنسى أن جعبتك ستمتلئ بصديد الكهف الخانق للطبقة العاملة، بدلاً من الكلمات والأفكار. فلنر أي رجل أنت وهل ستتكلم عن المطلق والحب والحرية بعد الآن. لنر في أية جزيرة نائية ستلقي نفسك. هكذا هتف قدري، ولم أكن أملك أية وعود، كنت راحلاً لأقتات، وأنا لا أعلم إلى أين! لندن، نيويورك، هونغ كونغ، إلى مراحيض أية مدينة سأنجح في الحصول على فيزا لم أكن أدري.

والليلة الأخيرة تأملت الغادين.. والضفائر والفتيات في حينا الحبيب للمرة الأخيرة، وكدت أبكي، كلما تذكرت أنني لا أعلم إلى أين أنا راحل، ومتى سأعود وكيف؟ كنت أقول لجميع المارين في شارع الحب: وداعاً.. وداعاً.. في داخلي فقط دون أن أبوح، حتى إذا أقفر الحي خطر لي بيت مالك ابن الريب:

تذكرتُ من يبكي علي فلم أجد

سوى السيف والرمح الردينيّ باكيا

وفي الصباح غادرت دون أن أدع أمي الباكية تصل إلى الباب، وكان أبي يرتجف: إلى أين يرحل هذا الغريب؟ هل هو ابني حقاً؟ إنني لم أكن على هذا النحو في يوم من الأيام!. ووصلت إلى المطار وحيداً... وفجأة.. توقفت والحقيبة في يدي! وكأنني كنت طيلة المدة السابقة مُساقاً، وسألت نفسي: هل أنا مسافر حقاً؟! ولكن إلى عند من؟! من سيكلمني..؟ من سيحبني..؟

ومن الطائرة رأيت لندن تضيء في العتمة مثل بقعة من الذهب. وهذا الصباح، وقد ذرفت نفسي الذكريات، والسماء تُثلج الأرصفة والعشب وأوراق الخريف، تساءلت من جديد أين سأعمل..؟ أين؟..

----------3---

"لندن في الثلج".. كان هذا اسم القصيدة التي خططتها حتى لا يغيب عن بالي ألق ذلك الصباح. ثم حزمت حقيبتي وقررت مغادرة وسط المدينة، وهبطت إلى الدور السفلي حيث اصطدمت بهندي أثناء مغادرتي عتبة الفندق المثلوجة، واعتذرت فسألني:

- من أين أنت!؟

فقلت له كاذباً:

- من مصر

فانصرف يهز رأسه ممتعضاً، ولكنني لم أدعه ينسحب وقلت بلهفة:

- هلاَّ دللتني أين أجد عملاً!؟

- عمل!..... أي عمل!؟

- مهما كان بأي أجر!

فقال دهشاً:

- الجرائد تعلن عن كثير من الأعمال.. أو أقصد مكتب العمل وهو ليس ببعيد.

وأشار بيده مستعجلاً فقد كان الثلج يتكدس على معطفه وشعره.

- أقصد عملا بدون أوراق... بلا إقامة!

فنظر إلى سحنتي وهز رأسه من جديد، كأنما فهم كل شيء... فقد جئت في وقت كانت فيه موجات الهاربين من الجوع تتدفق على القارة الأوربية بصورة غدت تثير فزعهم، وتُغير سلوكهم ورحمتهم القديمة من أجانب العالم الثالث، ومع ذلك كانت بريطانيا لا تزال في منأى، وأفضل من باقي البلدان الأوربية في معاملتها، بسبب كونها جزيرة قد حماها البحر من سيل الفقراء الذي يتدفق عبر البساتين والتلال من أوروبا الشرقية إلى ألمانيا والنمسا وفرنسا، حيث غزا المدن الألمانية وحدها نصف مليون بوسني أيام الحرب الأهلية في يوغوسلافيا. وقال:

- من أين قلت!؟

- من مصر!

- منذ متى؟

- منذ البارحة.

- احمد ربك على السلامة.. هل سمعت بالهنديين!؟

ولم أبح بشيء

- لقد دخلا مخزن عجلات الطائرة، وأقلعت بهما، وعندما فُتح مخزن العجلات عند الهبوط سقط أحدهما فوق لندن ونجا الآخر، ولكنه أصيب جسدياً ونفسياً، وعولج في لندن وأعيد إلى الهند.

ولذت بالصمت.

- حسناً اذهب إلى شمال المدينة، فالأجانب كثيرون والصيد أسهل في تلك المياه العكرة.

- إلى أين بالضبط؟

- إلى أي مكان.

ولكنه لم يلبث أن تريث وأخرج خريطة للمترو من جيبه ثم أشار بإصبعه:

- إلى هنا.. مانَر هاوس

ولامست ندفات الثلج البطيئة صفحة الخريطة، التي لم أدرك منها شيئاً، وأعطاني إياها مشيراً إلى محطة المترو. فمضيت إلى هناك، وهبط بي الدرج الكهربائي مائة متر تحت الأرض، حيث ولجت إحدى المقصورات وجلست نافضاً الثلج عن ثيابي وحقيبتي وغاب المترو في النفق.....

ورددت في نفسي هاهي حياة جديدة على أرض جديدة، وفتحت الخريطة وعددت المحطات المتبقية لي فكانت عشراً.

ولفت انتباهي سكرانة تطوف في المقصورة بملابس فاضحة، شعرها مشعث، وقد غطى الوشم يديها وعنقها، تُزين أنفها حلقة وأخرى عند حاجبها، وكانت تغني وبيدها علبة من البيرة:

أرسل لي المخدة التي حلمت عليها

وتصفق وتزعق وتزعج العربة كلها. وما إن توقف المترو في المحطة التالية حتى غادرَتْ. وصعد ثلاثة رجال وامرأة جلست أمامي بينما جلسوا بجانبي. وابتدأوا بالضحك والمزاح ما إن أُقفلت الأبواب.

وكانت فتاة تقبل شاباً على مبعدة بشغف كأنها ستأكله بشوكة وسكين. وكان معظم الركاب يقرأون هادئين، وكنت ميالاً إلى التساؤل أترى أحدٌ منهم يقرأ رواية شارلوت برونتي "جين إير"؟. وتوقف المترو في المحطة الثانية وصعدت امرأة تلبس "ميني جيب" تحت معطف أسود مفتوح تزينه ندفات الثلج. ثم جلست وخلعت قفازيها ووضعتهما على فخذيها الناصعي البياض، وملأت يديها بالكريم وفركتهما، ثم أخرجت حُمرة ومرآة وأخذت تطلي شفتيها، وكأنه لم يتسن لها فعل ذلك في البيت، ثم أخرجت مبرداً وأخذت تحف أظافرها، وفتحت الجزدان مرة أخرى وتناولت كتاباً وراحت تقرأ. وتساءلْتُ بلهفة من جديد أتراها رواية "جين إير"؟!. لقد بلغت محبتي لتلك الرواية قدراً لم تستطع أية رواية أخرى تجاوزه، وقد ظلت في ذاكرتي سنة بعد سنة، حتى اعتبرت الأيام التي قرأتها بها مقدسة، وأحببت لأجلها الأدب الإنكليزي كله. ولا أعلم كيف خيل إلي ذلك اليوم أن الجميع يقرأون "جين إير". وتوقف المترو عند المحطة الثالثة، ودلَفتْ يمامة رمادية ولفتت الانتباه، ولكنها طارت وأضحكت الجميع ما إن أغلقت الأبواب. وكان الرجال الثلاثة بجانبي لا يزالون يمازحون المرأة ويضحكون، حتى توقف المترو في المحطة الرابعة. فقامت وقبلتهم مودعة واحداً واحداً وبما أنني كنت الرابع قبلتني أيضاً وخرجَتْ! فانفجر الثلاثة من جديد ضاحكين. وأوغل المترو في الأنفاق. وصرنا نسمع أصوات عازفين وموسيقا آتية من المقصورة المجاورة، وعندما توقف المترو في المحطة الخامسة خرج منها عازفَين من أميركا اللاتينية بقبعات مكسيكية ودخلوا إلينا وأخذوا يعزفون

ويتمايلون. ثم رفع أحدهم قبعته وأخذ يجمع بها النقود. ولكنني لم أضع شيئاً، وآخر أيضاً كان واقفاً بجانبي. وقال للعازف سأعطيك جنيهاً كاملاً إذا عرفت لون سروالي الداخلي، فأجابه بسرعة: أحمر. فأنزل الراكب سرواله أمام الجالسين وقال: أرأيت إنه أزرق، وهتف بعضهم ضاحكين، بينما ظل الباقون مستغرقين في القراءة. وغادر العازفون في المحطة السادسة ليستقلوا مقصورة أخرى. وقلت يإلهي.. إن الجميع يبدون بخير.... وصرت أقرأ عناوين الكتب التي بأيديهم وأتساءل: وكتبي أنا من يقرأها!؟.. آه لو تترك تلك المرأة كتابها قليلاً وتقول لي إن كانت قد قرأت "جين إير" واسترخيت على المقعد، وتذكرت جين إير وهي تسير وحيدة منذ زمن بعيد بعيد بين بيوت صامتة خرساء وأبواب موصدة. أضواء في الداخل، وشموع ترتجف، وأصداء أفراح وهي وحيدة وحيدة لا يفتح لها أحد. فتوغل بين الأشجار وعلى ضفاف المستنقعات، وقد لبسَت الليل والريح ورعد الجبال، حذائها الطين وقبعتها المطر، وهدفها المستحيل، أشرعتها ممزقة. وأمواج الظلام أشرس من أن تعبأ بزورقها... وفجأةً في مترو ذلك الصباح لمحت فتاة أمامي تقرأ "جين إير"، وشيئاً فشيئاً أخذَت المقصورات تفرغ، وبقينا لوحدنا فتجرأت وقلت:

- إنني أيضاً قرأت "جين إير"

فشُدهَتْ وأجابت بلهفة وفرح:

- هل حقاً قرأت "جين إير"، وهل لن تنساها أبداً أبداً!؟.

- أجل

- هل مثلاً لن تنساها بعد عشرين سنة؟ هل أحببتها كثيراً جداً.

- نعم، نعم.

وتورد وجهي فتشجعَت وقالت:

- هل تقطع لها ميثاقا شرف أن تظل تحبها ما حييت، هل تكون مثلاً أنت الرجل الذي يمكن أن يبني معبداً لشارلوت برونتي في لندن؟!.

واحمر وجهي أكثر..... فاستيقظت على رنين هاتف نقال، وكان المترو متوقفاً، وقد بقي لي محطة واحدة، ولحظتُ أن سحنات الناس قد تغيرت، فلم يبق هناك انكليزياً واحداً، كانت الوجوه حولي آسيوية وإفريقية وشرق أوسطية، ورجل واحد يجلس أمامي يلوح كأنه روسي أو من أحد بلدان أوروبا الشرقية. وشعرت بمثانتي تحتقن بالبول، ووقفت وتهيأت للخروج، فلم تلبث الأبواب أن فتحت عند لوحة كُتب عليها "مانَر هاوس". فخرجت ووضعت الحقيبة على السلم الكهربائي الذي صعد بي من جديد إلى الثلج.

سرت بحذاء سور خشبي واطىء يحجب منتزهاً أشبه بغابة، وكان هاجسي الأول أن أجد بوابة تقودني إلى الأشجار، حيث تسنى لي أن أبول. ثم وقفت مفكراً: أين أجد غرفة لمدة ستة أيام؟ ولمحت المخازن من بعيد فاتجهت صوبها. وميزتُ لافتة كتب عليها "سرير + فطور"، فأودعت حقيبتي، وما لبثت أن وجدت نفسي في الشارع من جديد.

كان "مانَر هاوس" مؤلفاً من أتراك وقبارصة وأكراد، وقد ذهلت للوهلة الأولى كيف تجمع الأعداء في حي واحد. وبعد أن رأيت حوانيتهم قلت في نفسي ربما كانت الطبيعة الشرقية هي الجامع. كان السوق مؤلفاً من مطاعم للكباب وأخرى لشتى ضروب الطعام المطبوخ ثم محلات

للحلويات وأخرى لكل ما يخطر لك على بال من فواكه وخضراوات شرقية حتى إنك لتعثر على صبارة أو لفت أو بلح أو شوندر. وأخيراً كان هناك مقاهٍ تعج بالرواد الخاملين المنقوعين طيلة النهار لاعبين النرد والورق كأنهم منسيين منذ قرون، يحتسون الشاي مدخنين لاعنين، شواربهم غليظة وسحناتهم شرقية قاسية: وفتشت في كل مكان ولم أجد عملاً. سألت حتى الأفران التي تعرض عشرات الأصناف من الشطائر الساخنة، وحتى مصففات الشعر الأسود التركيات ذوات البشرة البيضاء، وحتى بائعي الساعات والذهب واللحوم، دون جدوى. فتتبعت رصيف المخازن الذي قادني إلى الحي المجاور، وكان جُلُّه من الهنود والباكستانيين والأفغان. ومن جديد تساءلت كيف يجتمع الأخوة الأعداء في شارع واحد؟ وطلبت العمل في كراج لبيع السيارات القديمة، وفي ورشة للخياطة وأخرى لتصليح الأجهزة الكهربائية، وفي كل المطاعم والمخازن والحانات، ثم عدت إلى "مانَر هاوس" حيث قابلت رجلاً من الحسكة يملك مقسماً للهاتف أشار إلي بالذهاب إلى "فرنزبري بارك" فهو مليء بالجزائريين، وقال مشيراً بيده: "ما إن تقطع المنتزه حتى تصل إلى ذلك الحي المسمى باسمه". فسرت تحت الأشجار الثلجية متتبعاً درباً ضيقاً من الحصى غَيَبَهُ الثلج، وكانت غربان سوداء كثيرة تحوم فوقي وتزعق وتتوقف أمامي على الأغصان كأنها ترقب شبحاً هالها وجوده وحيداً في الدغل. وما إن وصلت حتى دخلت إحدى الحانات أتدفأ، فلم يلبث النادل أن لمحني، فطلبت كأساً من الشاي. وتتبعت أرصفة المخازن والمطاعم من جديد. وكان الحي فقيراً قذراً ومن العبث البحث عن عمل فيه. وكان ثمة

مسجد مقفل قرب محطة المترو. وعلى جانبي الشارع المجاور عشرون مخزناً صغيراً لبيع الألبسة استبعدت العثور على عمل في أي منهم. ولمحت جزائرياً يسرق وقد طوى شيئاً تحت معطفه، وكان آخر ينتظره قرب بوابة المخزن، وما إن لمحاني حتى أخذا يقهقهان منتصرين وكأنهما ينتظران مني أن أباركهما ولكنني قلت بالعربية:

- تباً لكما

ومضيت، ولكنهما تبعاني وقال الأول مبرراً:

- إذا كانت كل الطرق التي أمامك تودي إلى جحيم فأي طريق تختار؟!

فأجبت:

- لا أعتقد ذلك.

ومضيت، فتبعاني من جديد وقال الآخر:

- حسناً إذا تراءى لعقلك أن كل الطرق التي أمامك تودي إلى جحيم فأي طريق تختار؟!

ووقفت مذهولاً..... دون أن أنظر إليهما.. وكرر بنفاذ صبر:

- أي طريق تختار؟

وقلت في نفسي:

- طريقاً إلى الجحيم

وعدت إلى "مانَر هاوس" قاصداً مقسم الهاتف فقال لي الرجل: عد في الغد فأقول لك أين تذهب. فمضيت لأبول للمرة العاشرة في ركن خفي، ولكن معطفي لامس سيارة متوقفة هناك فانطلق جهاز إنذارها فاستولى

علي الرعب، واحتبس البول، وإذا برجل يهرع لاهثاً نحوي، ثم يتوقف إذ رآني أبول ويتركني ويعود، وقلت في نفسي اللعنة.. اللعنة... كنت أتردد إلى المراحيض كثيراً، فما إن يثقل قليل من البول مثانتي حتى أركض هنا وهناك، وهذا ليس مرضاً أبداً، بقدر ما هي عادة، وقد أتعبتني كثيراً ذلك اليوم... واستندت على حائط فرع البنك القبرصي أقضم عنباً وخبزاً كردياً ساخناً، فلم يلبث أن خرج منه موظف وأبعدني، فدخلت سوبر ماركت أتناول طعامي قرب الباب، ولم يكن هناك حل آخر فعند كل بضعة خطوات كان علي التريث حتى لا أتجمد، ولكن أحد العاملين طردني بطريقة أنيقة إذ جلب لي كرسياً قائلاً:

- هذا كرسي.... هلاَّ جلست على كرسي!؟

ورددت من جديد اللعنة.. اللعنة... في نفسي. وجلست على عتبة منزل، وكان الثلج قد توقف منذ الظهر، والسماء عميقة داكنة، والنهار قد أخذ بالأفول، وبدأت أشعر أننا نوغل في شتاء قاس، وأن أي خريف حقيقي لن يلج. وأحسست بنفسي أكثر تراخياً بعد أن أنهيت الطعام، فقصدت النزل واستلقيت على السرير، وقد داخلني شعور غريب بأن المدينة تكاد تفترسني، وأن روحي هنا في مأمن، وأنني قد أشعر بالسعادة أيضاً فيما لو فتحت كتاباً، ولكن النوم خطفني. وعندما استيقظت كانت العتمة قد أطبقت على الشوارع الثلجية. واحترت كيف أستفيد من المساء، فقصدت أحد المقاهي عساني أتعرف بأحد، وما إن جلست إلى منضدة حتى لمحت الجزائريين ينظران إلي وهما ينفثان الدخان، وكان المقهى يوحي بأننا في مدينة عربية ليس إلا، فحتى

التلفاز كان يلتقط قناة تركية، أغانٍ ومواويل نائحة، وكان الجميع قد لاذ بالورق والنرد والشاي وكأنهم في غنى عن لندن كلها، وكان ثمة جرسونة بولونية أشبه بعاهرة تروح وتجيء بين الطاولات. وأشار إلي أحد الجزائريين هازئاً عندما التقت نظراتنا.. وقلت في نفسي اللعنة، وسألني:

- من أين أنت؟

فقلت كاذباً:

- من العراق.

- وتبحث عن عمل أليس كذلك؟

- أجل.

كانا يبدوان شريرين فظيعين، فاخترت أن ألوذ بالتلفاز ولكنهما نهضا وجلسا إلى منضدتي:

- لن تجد لا تتعب نفسك!

- ما العمل إذن...؟

- تزوج!

- أتزوج... من سأتزوج!!؟

- أياً كانت.. تزوج مومساً.

- مومس!

- أجل مومس نظيفة!

- مومس نظيفة!

- أو أرسلها إلى منظف.

وقال الآخر:

- أنا أنظفها لك.

وتنهدت متأففاً، ونظرت إلى التلفاز من جديد

- عندي حل آخر.

- ماذا؟

- بع كليتك.

فنظرت إليه.. فقال:

- أجل إن الإنسان يحتاج إلى كلية واحدة.

فعدت إلى التلفاز.

- إنها تساوي خمسة آلاف جنيه.

واقتربت البولونية مني فقلت لها:

- إنني خارج.

وقال أحدهما بصرامة:

- يجب أن تشرب.

وقال الآخر:

- من يحضر السوق يبيع ويشتري.

- ثم أنك لست عراقياً.

- أنت سوري.

- نحن نعرف المرء من أول كلمة.

- وأنت تكذب لأنك خائف.

- أو لأنك ملتوي.

- هل أنت ملتوي؟

فانفلتّ منهما بصعوبة وغادرت المقهى، ولفح وجهي صقيع الليل من جديد. إن القلب يتنازعه شعوران إما الإشفاق على الحضارة التي سيهدمها عاجلاً أم آجلاً هؤلاء الجياع، أو الإشفاق على هؤلاء المشردين الذين هم ليسوا سوى أرواح تائهة من لحم ودم، تبحث عن حياة ودفء. وقلت إن هذا يُفضي إلى أحد احتمالين تظل بهما حيرتنا عالقة، لا نعلم أي منهما سيسود، فإما أن تنعزل الحضارة لوحدها إلى الأبد بحيث سيظل يتردى فقراء العالم الثالث في أعماق الهاوية حتى يصبحوا في حالة قردية يضعونها في حدائق حيواناتهم بالمقارنة مع الخطى الواسعة التي يقطعها العلم، أو ستسود طيور العدالة البيضاء فوق كل الأرض لتشمل في النهاية كل البشر. كنت عاجزاً عن التفكير أكثر تلك الليلة، كانت مفاصلي تؤلمني، والبرد يجعل الدماء تتجلد في عروقي، فسلكت الدرب إلى النزل قائلاً لنفسي ستُحدد الألف عام القادمة ما أتوق إلى معرفته هذا اليوم، ستُحدد فيما إذا تدخل الأجانب الكثيف سيكون أحد أسباب إنهيار الحضارة، كما حدث في العصر العباسي، أم سيحقنها بدماء أكثر حياةً، جديدة متأهبة. كانت الانتخابات على الأبواب حينما وصلت، وكان الاحتدام بين حزب العمال والمحافظين على أشده، فبينما كان حزب المحافظين يقول عن الأجانب أنهم يجلبون معهم همومهم ورذيلتهم وفقرهم ليلقوا كل ذلك في بحيرة مجتمعنا، كان حزب العمال يتساءل: من سيعمل إذن في مصانعنا فيما

لو تم طردهم؟ كانت تلك المعركة هي الأسخن منذ نصف قرن بين جون ميجر وطوني بلير.

وفي اليوم التالي قصدت مقسم الهاتف، فحدد لي حي "الأخوات السبع" الذي يقطنه الزنوج، والمجاور لـ "مانَر هاوس" من الشرق، قائلاً ربما تجد حظك عند زنجي، فصعدت الباص الأحمر لأول مرة، وكانت ندفات من الثلج لاتزال عالقة عليه، وتماماً كما يفعل كل القادمين حديثاً إلى لندن جلست في المقعد الأول من الطابق الثاني، أمام الواجهة الزجاجية، حيث يشعر المرء أنه يطير إذا ما أقلع سريعاً ناظراً إلى الغيوم. كان الثلج قد كف عن التهطال ولكن الأرض لا تزال متجلدة.

في ذلك الصباح بدأ الماء ينفذ إلى حذائي، فصرت أحاذر الأرصفة المبتلة، تتبع خطواتي جليد الليل، مخاطراً حذراً وسرعان ما تجمدت قدماي، ومرت بقربي امرأة سوداء سوداء حتى كأن أحداً قد طلاها، بجانب رجل حالك السواد، مكفهر، مثل عفريت راجع من جهنم. كان المارة وسائقوا السيارات وأصحاب المخازن كلهم من الزنوج، أطفالاً وكباراً وعجائز، حتى تخال نفسك في السنغال، وقد بدوا بطيئي الحركة مذعورين، وكأن الثلج قد شلّهم شلاً. وكانت روائح الحوانيت والمطاعم عفنة نتنة في معظمها. ودخلت مطعماً واسعاً، معتماً، تضج فيه موسيقا افريقية صاخبة، يرقص عليها شاب نحيل وفتاة تلبس "ميني جيب". وكانت الشموع فقط هي التي تضيء المكان. وما إن وصلت إلى فسحة البار حتى سألت النادلة عن صاحب المطعم. وفهمتُ بصعوبة أنها تقول لي "انتظر"، ثم مضت وهي تتمايل مع الموسيقا إلى الطابق الثاني. ولم

أستطع أن أمنع نفسي من النظر إلى فخدي الراقصة، وهي تبدو مكتنزة شهية، فلحظ الآخر ذلك، وقال وهو يرقص: هل أعجبتك إلى هذا الحد، هل تحب أن تقبض على ردفيها هكذا؟! ووضع يده على مؤخرتها بفظاظة فضحكتْ. واستمر اللحن يغرق في الهمجية، ولهب الشموع يتطاول ويرتجف. وهبط إلى المكان عملاق طويل وعريض أشبه بمارد، لم أستطع أبداً أن أميز ملامحه، وقال الجسد:

- نعم.. يا سيد.

فسألته:

- هل تحتاجون لأحد يعمل!؟

فأجاب:

- هل نحتاج لأحد يعمل!؟.. لا.. لا نحتاج إلى أحد يعمل.

فشكرته على بلادته وانصرفت. وعثرت على فلسطيني يعمل في مخزن كبير للسمك وقال لي إنني إذا عملت مع زنجي فسوف يجدني صادقاً نشيطاً سريع البديهة، أما إذا اشتغلت مع إنكليزي فسيجدني بليداً قذراً كذاباً فيطردني. ودلني على الحي الرئيسي للزنوج في منطقة تدعى "بريكستون" جنوب لندن. وكان يَزين السمك للزبائن، معتمراً قبعة صوفية وقفازين جلديين ثم سألني:

- كيف وجدت لندن؟

- خلابة.. هائلة.

- يعني أنك أحببتها!

- أجل، من النظرة الأولى.

فهز رأسه استنكاراً ومقتاً، ولم يرد أن يكمل، ولكنه ردد بمضض وهو يتسلم النقود من زبون:

- أتذكر ماذا كتب توفيق زياد؟

- ماذا؟

- سأقول أنكِ توقدين

مصباح نارِكِ من دمِ الموتى

وجوع الآخرين

فأجبته:

- ما العمل!؟ إذا كانت طبيعة البشر تنحو هذا المنحى، ألم تفعل الحضارة اليونانية الشيء نفسه؟! ألم يصل الإسكندر الأكبر بجيوشه إلى الهند!؟ ألم تتوسع رقعة حضارة الفراعنة، وكذلك الآشورية والعربية والرومانية!؟

وكدنا نشتبك بحوار طويل، ولكنه كان لا يكاد يتوقف عن الحركة إلا بشق النفس. فغادرته، ولوحني البرد من جديد وكنت أقول لنفسي: نعم فعلوا الشيء نفسه، ثم أن الحضارة الغربية سحبت الجيوش من مستعمراتها تحت ضغط شعوبها، لقد قال سارتر إن جيشنا في الجزائر عار على فرنسا. واطمأننت إلى النتيجة التي تقول إن الإنسان يتطور ودرب الكمال طويل. ونسيت الحوار. وسرت وسرت، حتى رأيت مطعماً للأتراك، تحت جسر يسير عليه المترو الفوق أرضي. لقد ملأ الأتراك لندن بالكباب، فلا تقرأ على لافتة kebab إلا وتجد في الداخل أتراكاً يقطعون الشاورما بالسواطير. وعندما ما أخذت أسأل عن عمل تبين لي أن لا أحد منهم يفقه

الإنكليزية، فمضيت إلى صاحب المطعم الذي اعتذر على الفور، وخرجت وقد اطمأنت نفسي: ثمة من وجد عملاً ولا يفهم الإنكليزية. ودخلت إلى حانوت صغير لبيع الملابس النسائية دون أن أدري أين ألج! لقد بدا وكأن قدماي تهربان من الصقيع أكثر من كوني مفتشاً عن عمل. وفوجئت بامرأة سوداء أربعينية تضع تاجاً من اللؤلؤ على رأسها وتجلس على أريكة غريبة، فتلعثمتُ وقلتُ:

- أنت الملكة؟

فقدمت إلي من مخدع يقع في الخلف ويبدو أنه يستعمل للقياس، وقالت وهي تقترب بغنج:

- أية ملكة؟

- أأنت وحيدة هنا؟

فتمايلَتْ وهي تدنو مني أكثر:

- ماذا تقصد؟

فقلت وأنا أهم في الخروج:

- لا.. أعتقد أنني أخطأت في المحل.

- أتقصد أنني أشبه ملكة؟

- نعم.. أنت ملكة بكل معنى الكلمة.

فدارت بدلال كأنما لتريني رد فيها ثم وقفت أمام مرآة طويلة تنظر بهيام إلى نفسها، فاقتربت وقلت:

- ملكة ساحرة ودافئة.

فأبعدتني قائلةً بسحر:

- وأنت بارد ككتلة من سيبيريا.

- ما اسمكِ؟

- تبدو غريباً حقاً.. ماذا تبغي من اسمي... ومن أنت؟

ثم سحبت خاتم الزواج من إصبعها في وجهي وأعادته مبتسمة متوعدة، كأنما تقول "زوجي آتٍ" أو من قبيل "آن الأوان لكي تنصرف". فاتجهت نحو الباب، فنظرت إلي بعينين مغويتين وقالت بدلال وهي تلوح بكفها توديعاً:

- دعني أراك.

فأومأت لها بأن نعم، فقالت بلهفة:

- أكيد.

وخرجت. لم يكن شارع "الأخوات السبع" طويلاً، فسرعان ما وجدت نفسي في الأوتوستراد اللانهائي الممتد بين حي اليهود وشارع ليفربول، والذي كان قد وصفه لي صاحب المقسم بأنه طويل جداً ومليء بالمخازن والأعمال.

كان اليهود يقطنون بيوتاً قرميدية ذات طابقين كالعديد من بيوت لندن، وكانت مخازنهم متناثرة على أربعة شوارع تشكل صليباً. وكان الجميع يضعون رقعة صغيرة أشبه بقبعة ضئيلة على مؤخرة الرأس لم أجد لها نفعاً، فهي لا تقي من برد أو من شمس، وكان يضعها الكبير والصغير، الكهل والطفل، كأن لا لشيء سوى ليلفت انتباه الناس بأنه يهودي. أما الشبان فكانت تنحدر خصلتان من الشعر من تحت قبعاتهم أشبه بقرنين طويا إلى أسفل. وكانت قبعاتهم عريضة دائرية، تلك التي

كان يستعملها الأوروبي في أوائل القرن الماضي وما سبقه، والتي عفا عنها الزمن. وتعجبت إذ اكتشفت في داخل كل منهم خُصل نقص عجيبة، فأنت تتقدم لتتكلم مع امرىءٍ فيظهر على سيمائه نوعين متلازمين من رد الفعل: فهو خائف من أن تزدريه ومتعال من أن تساويه بنفسك، ثم لا يلبث أن يصبح إنكليزي الطابع إذا طال الحديث بينك وبينه، وكأن الحتمية البريطانية تستلزم أن يكون متواضعاً وعملياً ودمثاً. وتبدت نساؤهم شقراوات محتشمات خاملات، لا تتدفق وجوههن بالحياة أو الذكاء أو الفرح كما هو حال الإنكليزيات، وإن تلمح في تعابيرهن نوعاً من الرفعة ولكنها ليست رفعة عملية حقيقية كما هو حال الأوروبيات، أي ليست رفعة اقتدار أو ثقة، وإنما ذلك الترفع الأشبه بقبعات رجالهم والتي أكل عليها الدهر وشرب[1]. وعثرت على علب من الحمص في مخازنهم، وبعض الأطعمة والأرغفة الشبيهة بما نتناول. وكان ثمة مخزن على مبعدة، يبيع القبعات الدائرية، وهو المحل الوحيد في لندن الذي تقتصر بضاعته على تلك القبعات الأوروبية القديمة.

ما إن ينتهي حي اليهود حتى تعود مخازن الأتراك من جديد تملأ ذلك الأوتوستراد الذي ينتهي بمحطة شارع ليفربول. مرة أخرى: مقاهي وبائعو خضار ومحلات بقالة، يملك معظمها الأتراك، إلى جانب قليل من الصينيين والإنكليز والباكستانيين والزنوج والإيرانيين

1- كما بدا لي على الأقل، قد لا يكون الحال على هذا النحو في إسرائيل.

والقبارصة والأكراد. خِضم واسع وعجيب من الجاليات. تبدو فيه جالية هونغ كونغ أكثر خفة وذكاء وحيوية من الصينيين. وفي الوقت الذي يظهر فيه الباكستاني أكثر سماحة من الهندي فأنت ما إن تنظر إلى المرأة التي معه حتى تشعر بنظراته تفرم لحمك فرماً، بينما قد تجد في الهنود من يستعذبون إعجابك فتتذكر طبيعة الأفلام الهندية المفعمة بالحب والأغاني والمشاهد الخلابة للمروج والشجر والأنهر. وفي الوقت الذي تبدت لي فيه طبيعة الأتراك أكثر تحرراً بقليل من السوريين عجبت لمشهد النساء الإيرانيات اللواتي بَدَوْنَ دائماً بملابس هفهافة، رزينات قويات أكثر ثقة بكثير من العربيات اللواتي كان كثير منهن متشحات بالحجاب أو السواد. أما التركيات فلم تكن بينهن من تضع حجاباً أبداً، ولكن ما إن تقترب لتكلمهن حتى يتبدى ذلك الضعف الذي يذكر بأنهن لسن إلا "حريماً"، ولم أستطع أن أميز أبداً بين الأكراد والأتراك، ولكن يمكنك معرفة القبرصي من حركاته الخفيفة وسرعة بديهته التي تشبه أولئك الأتراك القادمين من بلغاريا أو قبرص.

في ذاك اليوم، وفي ذلك الأوتوستراد الأشبه بأحد أسواق البلدان النامية، وفي تلك المتاهة من الغرباء، لم أكن أترقب إلا ذلك الذي يتفوه: "نعم عندي عمل لك" مهماً كان من بقاع الأرض، كنت متأكداً في أعماقي أن بإمكاني إثارة شفقة أي إنسان، إن الفقراء يشعرون بجوهر المجتمع الذي هو "التعاون" كما حال الأثرياء، ولكن الطائفية تنشأ من الطبقة الوسطى كما الفكر أيضاً.

مضيت على الثلج متنقلاً من مخزن إلى فرن، ومن ورشة لإصلاح السيارات إلى محطة بنزين، عارضاً خدماتي، متلقياً رفضاً حانياً تارة وجافاً طوراً، وأحياناً كنت أطرد طرداً. إن المرء لا يدري مدى ما قد يدفع إليه القنوط والشعور بالفشل من مرارة.. إن النفس لتفقد ثقتها بسبب التجريح المتواصل من باب إلى باب. وإنني أصلاً لم أكن واثقاً من جَلَدي فيما لو وجدت عملاً. فكان اليأس مضاعفاً، غور عميق من الضحالة والعذاب انفتح أمامي، ولم يكن ينتشلني سوى خيالي، الذي أتى بي إلى ما وراء البحار، إيمان غريب بأمل ولو في تخوم الجحيم، رافقني منذ طفولتي.

صرت أتخبط، كان الأمل واهناً، فالزمن الذي يمكن أن يقال فيه أنني شاباً شديداً قد ولى، ضاع عند حكمة المتنبي وأشواق جميل بثينة وفلسفة المعري، وقلت إن الحياة لم تعد تعِد بشيء. وتذكرت معلقة زهير ابن أبي سلمى وكيف يصف أنه على مدى ثمانين عاماً، تارةً في عسر وأخرى في نقيضه قد تخيل عدة مرات القدر وهو يدهس البشر كجمل أعمى.

وعاد الثلج إلى التهطال، وتسرب الماء إلى داخل حذائي، وكنت أنفض الندفات عن معطفي كلما ولجت مخزناً، ولكنني لم ألبث أن غدوت أبيضاً إلى أخمص قدمي، ووجهي يطفح بالمرارة. فهبطت إلى إحدى المقاهي التركية التي كان معظمها ليس سوى أقبية. وخلعت معطفي في ركن ونفضته، مما آثار سخط رجل لم أره كان يتناول الطعام بجانبي، وقد سقطت ندفات الثلج في طبقه، فقام وغادر المقهى

تاركاً طعامه وكأساً من العرق بجانبه. فتأكدت من ابتعاده ثم هرعت إلى الطبق. لقد كان الجوع يبعث في نفسي هلعاً عظيماً، رغم كوني في مثل هذه السن، فيؤدي برأسي إلى الدوار، وبقواي العقلية إلى الانحطاط، فأشعر بأنني أشقى المخلوقات، وأخشى من سقوط الإدراك والانتهاء إلى المخدرات. وتبينت أن المقهى لم يكن سوى كردياً، فصورة عبد الله أوجلان في ناصية المكان، وبجانبها لينين وماوتسي تونغ وماركس وستالين في لوحة واحدة، وأعلام حمراء ومناجل ومطارق. وكان ثمة فتاة شقراء تخدم رجالاً تبدو البطالة والملامح القروية على وجوههم، يحدقون بالتلفاز ويلعبون النرد والورق، وكان ثمة طاولة بليارد لا أحد يستعملها منسية في نهاية المقهى. ودخلت إلى المرحاض ثم عدت إلى مكاني: ما أعظم الراحة التي يشعر بها المرء بعد أن يبول، أحسست بهدوء غريب يسحرني، ودفء يرين على أعصابي وحواسي. ثم خرجت كما دخلت، وأخذ ثلج الثلوج يطبق على المدينة وعلى قلبي. وكان الرصيف ممتلئاً بالمارة، وكانوا هرعين هلعين رغم أنهم بعكسي يعلمون بأنهم سيصلون. وشاهدت منزلاً نوافذه محطمة وعمال في الداخل يروحون ويجيئون وقد ملأ الغبار سحناتهم، فصعدت وسألت أحدهم وكان متوقفاً في أعلى الدرج، فأجابني "تريث قليلاً"، ودخل وخرج آخر ثم اقترب مني قائلاً:

- من أين أنت؟

إنهم دائماً هكذا في لندن ما إن تحتك بأحد حتى يبادرك "من أين أنت؟". ولما أجبته قال: "لا.. لا نحتاج". فغادرت مسرعاً وقد صعقتني كمية الغبار

في الداخل، وتساءلت رباه في أي عمل كنت على وشك أن ألقي نفسي. ووجدت مطعماً لرجل من بنغلادش يلصق العجين في تنور عربي حقيقي ثم يخرجه أرغفة ساخنة طازجة، وبعدها يدلي بأسياخ كباب طويلة فيه حتى تُشوى. وقد كتب على زجاج المطعم "مطلوب عامل"، فنفضت معطفي، وتمخطت، ثم بلت في زاوية، وعدت إليه متوازناً هادئاً، ولكنني سرعان ما اكتشفت أنهم يبحثون عن امرأة، فخرجت. وازدادت نفسي قتامة بعد ميل من السير، وأحسست بجوربيَّ غريقين، وتنهدت مردداً "يا للمرارة"، ووضعت كفي على وجهي بحزن، ثم تذكرت أنني لم آت إلى لندن من أجل الألم والفرح وإنما من أجل الحفاظ على البقاء، فتابعت طريقي. وفجأة صعدَتْ الشمس وسط الثلج المنهمر، وأشرقت ملامح كثير من المارين، وابتسمتُ، كأنما تراءى فجأة لي أن مسألة العمل والنقود والمستقبل قد حُلَّتْ. يا للعلاقة الغريبة التي تكررت عبر آلاف السنين: أي نوع من الكرب يبثه الضباب والثلج والمطر؟ فما إن تشرق الشمس حتى يُبعث القلب، ويولد من جديد.

وتوقف الثلج عن التساقط، ولكن ما هي إلا لحظات حتى توارت الشمس الخائنة، وكان شارع ليفربول لا يزال بعيداً. ومر بجانبي حصانان يعتليهما رجل وامرأة من البوليس، يسيران بهدوء ويرقبان كل شيء، وظهر مسجد تركي على الرصيف المقابل، وقربه مخزن لبيع الألبسة المستعملة، فبحثت عن حذاء عتيق ولم أجد مقاسي. وما إن وصلت إلى محطة شارع ليفربول حتى كانت السماء قد اعتمت،

وتطلَّب مني اللجوء إلى المترو لقطع تلك المسافة إلى "الأخوات السبع" حيث استقليت الباص من جديد إلى "مانَر هاوس".

وفي الصباح التالي عدت إلى صاحب المقسم فسألني إن كنت قد فتشت في شارع العرب، فأبديت دهشتي من أنني لا أعرفه، فأخرج الخريطة ودلني على شارع "إدجوار" قرب شارع إكسفورد، وهكذا عدت إلى وسط لندن.

ابتدأ الشارع بمطعم سوري كتب على لافتته بالعربية "يا مال الشام"، تلاه آخر حملت لافتته: "لحم حلال مذبوح على الطريقة الاسلامية"، ثم صيدلية الرازي وبعدها حلويات الأمير، ثم كافتيريا "علي بابا" وسوبر ماركت "الوادي الأخضر"، يقابلهما البنك الكويتي، ومحلات بقالة ومقاهٍ ونراجيل ومكتبات تعرض كتباً أشبه بفضائح للأنظمة العربية كافةً. وفي هذا الشارع تمتلئ غرف التلفونات بصور العاهرات وأرقام تلفوناتهن وقد كتبت إحداهن: انظر إلى مؤخرتي تدرك سر جمالي. وأخرى: جمالي سلطاني ودروبي سالكة. وثالثة: سوداء ولكنني كقطعة شوكولا. ورابعة: تمثال من الرقة ولكنني ذات قرون. ومرت بجانبي امرأة يلفحها السواد حتى أصابعها ولا يبدو من وجهها سوى عينين عربيتين سوداوين. وكان أحدهم يضع بسطة على الرصيف ويوزع منشورات إسلامية، وفتشت كل الأماكن حتى انتهيت بنادل يقف أمام باب مطعم "الدار" اللبناني فلما سألته عن عمل قال بغرابة:

- لا.. لايوجد... الجميع يفتش عن عمل اليوم

ونظرمن الباب نحو جسر يقع في نهاية الشارع

- من الجميع!؟

- منذ دقائق فقط مر شاب أرمني لبناني وقد طُرد من عمله السابق في كافتيريا، ولما أجبته بأن ليس لدينا عمل اتصل بخوري الكنيسة المارونية وتواعدا أن يلتقيا هناك.. إنه حتى لايجد مكاناً يأوي فيه.

- أتعرف أية كافتيريا؟

- اذهب واسأله

- أين تقع الكنيسة؟

وأجاب مشيراً إلى الجسر:

- في نهاية الشارع إلى اليسار توجد محطة البوليس المسؤولة عن العمليات الإرهابية وشؤون الأجانب، فإذا ما عبرت الطريق إلى حديقة من الخضرة تقابلها، تجد كنيسة الموارنة تحيط بها الأشجار من كل جانب.

هناك وجدته، كان يهيم تحت أشجار الكنيسة بوجه ذكرني بكآبة المسيح في جبل الزيتون وهو يقول "إني حزين حتى الموت". كان حزن الأرض كللها في عينيه، وكان ينتظر خوري الكنيسة ليعود ويقول له انه لا يجد مكاناً يبيت فيه. ولم أستطع تجاهل حزنه أبداً، كان من المستحيل أن أقول له أين كنت تعمل لأعمل مكانك، فجلست على مقعد مقابل الكنيسة متأملاً الغربان المتنقلة تحت كآبة السماء بين الأشجار العارية وسطحها، لم يكن هناك سوى كنيسة مقفلة تلفها الأسرار والرياح، لاذت حول بوابتها المعتمة طيور سود وكأنه منذ قرون لم

يزرها أحد. وأخذ يروح ويجيء على الثلج بشعره الطويل حتى كتفيه ووجهه المطرق الساهم، حتى إذا غدا على مسمع مني قلت بالعربية:

- يبدو أنك تنتظر أحداً.

فالتفت إلي وقال وقد هاله جلوسي وحيداً على مقعد من الصقيع والبرد:

- من أنت؟... ماذا تريد؟

- لا شيء... كنت أبحث عن عمل....

وقاطعني:

- تبحث عن عمل..!.. هنا...؟

- حسناً كنت في شارع "إدجوار" ومِلتُ إلى هذا المقعد لأستريح.... وأنت؟

- أنتظر خوري الكنيسة.

- لا أحد سوف يأتي.

وتأمل وحشة المكان حولنا... وفهم ما أعنيه "لا أحد يفكر بأحد ولا أحد ينقذ أحداً" دمدم، ثم جلس بجانبي مطرقاً حتى كاد يلامس رأسه الأرض، وشرح لي أنه مصاب بالصرع، وأنه طرد من مطعم إيطالي في "شيفردبوش" كان خوري الكنيسة قد ضمنه لهم فيه منذ يومين ليعمل وينام، وقال بأسى ان مريضاً مثله لا يمكن أن ينجح في الغربة، وأن الجسد يخونه منذ أن كان صغيراً، وأنه يتمنى لو أنه لم يولد. ثم عاد يروح ويجيء أمامي كأنما فطن إلى أن لا فائدة من الكلام وأن لا أحد ينقذ أحداً. فقصدت "شيفردبوش" وقد عمدت أن أفتش جميع المطاعم

الإيطالية، وكان الحي ملجأ للعرب الفقراء مختلطين مع باكستانيين وهنود وزنوج وأتراك وصِرب. يقع فيه سوبر ماركت كبير يدعى "بوابة دمشق"، ومقهى للأتراك وآخر للصِرب وكافتيريا صغيرة للأريتريين، ومحلات كثيرة للأقمشة الأفريقية، وبازار للبضائع الرخيصة تجلس فيه هندية تقرأ الكف مقابل خمسة جنيهات، فسألت فلسطينياً يعمل في كشك للفلافل يقع في آخر البازار، فأجابني بأنه ليس مطعماً وإنما كافتيريا وحيدة تقع قرب المكتبة الاسلامية.

فذهبت إلى هناك لأجد إيطالياً أشبه بالعرب، أسود الشعر، حاد النظرات، تأملني من رأسي إلى أخمص قدمي، ثم قادني إلى حجرة تجلس فيها سيدة أنيقة وراء مكتب، تكلم معها بالإيطالية مشيراً إلي كأنما يود أن يشتري بغلاً، ولم أفهم من حديثه سوى كلمة "عربي"، ثم أحنت رأسها موافقة. فنزل بي إلى قبو فيه مغسلة وأطباق وبراد، وكان كل شيء نظيفاً مرتباً، حتى أنه كان ثمة مكنة لغسيل الأطباق، وقد اغتبطت جداً لذلك. ثم لفت انتباهي إلى مصعد صغير لوضع الأطباق التي أكون قد نظفتها حيث يستلمها في الأعلى.

بدا كل شيء على ما يرام، وعملتُ أربع ساعات متواصلة وذات مرة لم يتسع المصعد لكل الأطباق فحشرتها به حشراً، ثم ضغطت الزر متأملاً المصعد من الزجاج وهو يرتفع، ولكن لم تمض خمسة دقائق حتى هبط إلي الإيطالي صارخاً مشيراً بيديه بأنني عطلت المصعد، بأن حشوته أكثر من المعتاد، ولم أفهم كيف حدث هذا، حتى جاءت صاحبة الكافتيريا وأخبرتني ببرود أن علي أن أدفع خمسمائة جنيه، وكأنها

تتوقع مني أن أضع يدي في جيبي وأخرجهم لها، وأخذ الآخر ينظر إلي مكفهراً منتظراً، وتأففتُ بحيرة دون أن أفوه بشيء، فأشارت إلى الباب بحنق بورجوازية لم يسبق لها أن غضبت:

- اخرج... هيا... ولا ترني وجهك مرة ثانية.

فخرجت ذليلاً مغتماً، ووجدت المساء قد أطبق، سرت بضع خطوات بهدوء، وانتابني شعور غريب بأن الأرمني لا يزال هناك، ورغم التعب الشديد عدت إلى الكنيسة، فوجدته مستلقياً على المقعد نائماً متيبساً من البرد، فأنكرته للمرة الثانية وعدت إلى "مانَر هاوس" ودفنت نفسي في الفراش مرتعداً محبطاً مهزوماً.

وعلى هذا النحو انقضت الأيام الستة، كنت أسير وأسير اثنتي عشر ساعة في اليوم، وكنت أتناول الوجبات اليومية وراء نوافذ الباصات، وفي مترو الأنفاق، وأحياناً في الحدائق الكئيبة المغمورة بالضباب وورق الخريف. وكان علي دائما اكتشاف مراحيض جديدة في هذا التجوال الطويل، لتغطية حاجات مثانتي العليلة، فكنت أغشى دورات مياه مطاعم "المكدونالد" وأزدرد بقايا الموائد وأنا خارج، أو أدخل حانات سباق الخيول المنثورة على عدد محطات المترو. أما دورات المياه العامة فلم أكن أعرف دائماً أين تقع، ففي مركز المدينة كنت أجدها مزهوة لامعة كأنها في بيت أحد الأثرياء، تشيع الموسيقا في أرجائها، تزين اللوحات جدرانها، مياهها ساخنة ومراياها ملتمعة، مكتظة بأحواض النباتات، وثمة أجهزة للتجفيف وأخرى لقياس الوزن. أما في الأحياء البعيدة غير الإنكليزية فكانت تفوح كمراحيض البلدان

النامية، وقد كتب على الأبواب شتى ضروب الكلمات المتقاطعة ورُسمت كل أوضاع الجماع الجنسي.

وكانت النقود تنفذ، وضجيج المدينة الهائلة يرهق أعصابي فأزداد شعوراً بالخطر، وكنت كلما وجدت قلماً أضعه في جيبي دون أن أعي بما أقوم به، ثم اكتشفت فجأةً أنني لست بحاجة إلى هذه الأقلام. ولم أكن أسمع نشرة أخبار أو حتى موجزاً، فلم يكن يربطني بالثقافة سوى عناوين الأخبار الرئيسية في الصحف العربية المعلقة بالأكشاك، والتي لم أكن أشتري منها شيئاً. وكانت صورة الأميرة ديانا تتصدر عناوين معظم الجرائد الإنكليزية، وكنت أدهش لصحف أخرى تحوي صوراً لنساء عاريات في الصفحة الأولى، بينما تأتي السياسة في الصفحات التالية. كنت أشعر أنني أكتسب خبرة وأتعلم، كنت كل يوم أتقدم خطوة، ولكن نحو لا شيء، تبدو لي الحياة سراباً وأن لا شيء يمكن أن ينقذني، وعصر اليوم الخامس اعتراني من اليأس والفشل ما شحب له لوني، ولم أفهم ما الذي جعلني أتذكر الأرمني، وقد داخلني إحساس عجيب بأنه لا يزال هناك، وساقتني قدماي رغماً عني، وكانت كآبة الغربة قد غشيت الأشجار، وكنت أدمدم من المحال أن يكون هنا فلماذا إذن آتي، وجلست على المقعد متذكراً يأسه، مفكراً في السبب الذي يجعل الجاني يعود إلى مكان جريرته. كانت الغربان لا تزال تزعق متنقلة بين الكنيسة والأشجار تحت الغيم الكابي. وراحت تنوح وتوحي إلي بعمق الهاوية التي أنا بها، فتساءلت أي طريق رهيب للخلاص قد اتبعت، مالذي جعلني أنفق شبابي وعزيمتي ونقودي على الأوراق والحبر،

وأسندت وجهي إلى كفي واتكأت بمرفقي على ساعد المقعد وتمنيت أن أموت. عندها فقط أدركت أن كتبي قد كلفتني حياتي كلها، سبعة وثلاثين عاماً.

أن يشعر المرء بالسكينة لفترة ثم يبدأ من الصفر ليبني حياته من جديد لمن أشق المصاعب على الإنسان.. كان الثلج قد ذاب، والأشجار العارية تنظر إلى كعجائز تنتحب، وعويل الريح أخذ يُسمع من بعيد.. ولكن بلابل غريبة زقزقت بجانبي على غصن خلتها تقول: "الاشر عليك"، فابتسمت ناظراً إليها، عندها فقط خطرتْ ببالي الصحف العربية الأربع، وقررت أن أخاطر باليوم السادس الذي تنفذ فيه نقودي في البحث عن مواقعها ومحاولة العثور على عمل في الصفحة الثقافية.

وأتى الصباح معتماً كليل، الصقيع يلفح كل شيء، والسماء التي لم أرها منذ وصلت مندثرة ليس لها أي أثر. ودونت عناوين الجرائد وهي في مكانها معلقة على الأكشاك. وقصدت محطة "هامر سميث" حيث تقع جريدة القدس، وعبرت بين مكاتبها الأنيقة إلى غرفة الأردني أمجد ناصر المسؤول الثقافي، فقال لي بعد أن رأى كتبي إن المقالات الثقافية تأتيهم مجاناً ولا يدفعون ثمناً لها أية نقود، فسألته عن الصحف الأخرى، فقال انهم يدفعون: "ولكن حالنا هنا نحن العرب كما هي هناك في البلاد العربية، لسنا سوى شلل، ولا يدخل غريب دون واسطة". فمضيت إلى جريدة الحياة، وكانت على مبعدة نصف ساعة سيراً على الأقدام. وأوقفتني في الدرب مكتبة عربية لعراقي تدعى "مكتبة الوراق". فدخلت وتحدثت معه، فأخبرني أن لندن مثل سوق عكاظ

يجتمع فيها كثير من الصحفيين والمثقفين والكتاب والشعراء العرب، وأردف بحسرة: ومع ذلك فإن مدخولي ليس أكثر من "خبزنا كفافنا". ووصلت إلى مبنى أنيق من البللور فيه مكاتب مجلة الوسط بالإضافة إلى جريدة الحياة. ولم أصعد إلى فوق بل نزل ليقابلني أحد المسؤولين عن الصفحة الثقافية، وكان من صيدا وقد نسيت اسمه، وقال لي أن المقالات التي تتدفق عليهم جعلت كثيراً من أصدقائه يتخاصمون معه بسبب النشر. وودعني مصافحاً برحابة صدر ثم أنصرف. فطلبت المسؤول الثقافي عن مجلة الوسط، وكان اسمه بيير أبي صعب، من جبل لبنان، حيث قال لي أن المجلة أسبوعية والصفحة الثقافية صغيرة الحجم ولا مجال كبير للإبداع. فسألته إن كان ثمة أمل في الجرائد الباقية، فأجابني: "لا أعدك ولكن لا تيأس". فقصدت صحيفة الشرق الأوسط في "هولبورن" وقابلت محي الدين اللاذقاني "من حلب" وقد رحل كثير من الشعر عن رأسه، ونبتت له لحية كثيفة جعلت وجهه أشبه بوجه ماركس. فقال لي بعد أن أريته كتبي: "أكتب والمقالة الأجدر تفرض نفسها في صفحتنا الثقافية". ولكن صوته كان يوحي بأن: لا تكتب فلا جدوى. فمضيت إلى "بريكستون" حي الزنوج في جنوب لندن، وسمعت صخباً وصوتاً عالياً ينبعث من مكبر حالما خرجت من المترو، وعندما ألقيت نظرة وجدت أحد الزنوج يبشر منادياً بالمسيح بطريقة تصم الآذان، فقال له أحد الإنكليز من بعيد: "قل لنا من فضلك متى خرجت من مستشفى المجانين؟"، وضج الواقفون من الضحك، وسألت أحدهم عن الطريق إلى جريدة "العرب". فأشار إلي، عبرت

الشارع ثم مررت بجانب مطعم يدعى "ريستوران القرود الثلاثة"، فوجدت نفسي قرب المكدونالد، فما إن سرت خمسة دقائق حتى تكشف لي مبنى الجريدة، وكان من الداخل عتيقاً متآكل الأثاث. حيث قابلني مصريٌ يدعى "السيد حسن". وكان هو الوحيد الذي استضافني وطلب لي قهوة، وسألني عن قصتي، ورويت له مطرقاً خجلاً كل شيء منذ طفولتي الغريبة وحتى الآن، ولكنني لم أقل له أن جوربيَّ غريقين أو أنه لم يبق معي من حطام العمر سوى ثمن وجبة واحدة. وتحدث إلي بأن الطبيعة لن تكون رحيمة أبداً بالذي يسير عكسها، وأن تيار المال والنفوذ هو الدرب الطبيعي للإنسان، وأن التسامي عن طريق الفكر والحب والفن هو عكس ذلك التيار وبالتالي عكس الطبيعة البهيمية التي ورثناها عن أجدادنا القرود والسعادين. وأخيراً قال لي: مع ذلك ستكتشف في النهاية أن انتصارك في المأزق الذي أنت فيه سيطورك وبالتالي سيطور قصائدك، إذ يقول داروين: لكي يسمو المرء عليه أن يظل خاضعاً لصراع عنيف. ولا أعتقد أنك تريد النوم على أكاليل الغار القديمة. ثم ودعني، فوجدت نفسي في الشارع من جديد، وقد اختفى النهار، ولم يبق سوى غصة في القلب. وقرب مبنى الصحيفة ذاك وجدت حذاءً قديماً في مخزن لبيع الألبسة المستعملة، وكان قوياً متيناً، مقاس قدمي تماماً، سعره ثلاثة جنيهات، وتحيرت هل أشتريه وأبقى بلا عشاء؟ وحزمت أمري واشتريته، ولكن ما إن وصلت إلى "مائَر هاوس" حتى أمضني الجوع.... وشعرت بقلق غريب... ثم اجتاحني الذعر، فصرت أنقب في سلات القمامة باحثاً عن شيء لا أعلمه، كأنما

لأصرف عقلي فقط عن الجحيم وليس لأسدّ جوعي، واكتشفت أن الجرائد تحتل معظم مساحات سلات المهملات في هذا الوقت من اليوم، تليها علب البيرة والمياه الغازية، واكتشفت أيضاً أنه إذا كانت سلة النفايات فارغة قليلاً أفضل من أن تكون ملآنة، لأنك سرعان ما تفرز محتوياتها. وعندما شبعت قصدت النزل باكراً، كأنما لأنام أكبر وقت ممكن طالما أنها الليلة الأخيرة الدافئة.

----------4---

في صباح اليوم التالي قررت أن أتسول، فقطعت لندن من أقصى شمالها إلى "البيكادلي" سيراً، مما جعلني أتهالك جالساً على الأرض في بهو المحطة، بادياً كشحاذ حقيقي، مدمدماً يا إلهي.. إلى أي درك أنا أتردى.. على أي موبقة أنا مقبل؟ ولكن معدتي لم تكن تعي سوى الجوع، وعقلي لم يكن يرتعد سوى من فكرة النوم في العراء. وتلفتُّ حولي فوجدت شحاذاً إنكليزياً وقد غرز في أذنه سبعة حلقات معدنية، وامتلأت كفاه ورقبته بالوشم، جالساً على مبعدة مني متدثراً بطانية، يغمض عينيه تارةً ويفتحها تارةً أخرى، تحت خدر أفيون ما، وأمامه كانت بضعة بنسات متناثرة هنا وهناك، فقلت في نفسي إن حالي لن يبدو مثيراً للشفقة بقربه، فابتعدت إلى جانب الدرج المفضي إلى الرصيف، ولكنني لم ألبث أن شعرت أنني أضايق النازلين، ولمحت شرطيين ينظران إلي وكأنما خامرتهما نفس الفكرة، فأسرعت بالخروج. حيث سرت إلى محطة "غرين بارك" التالية، المجانبة لمنتزه شاسع من الشجر والأوراق الخريفية. وكان ثمة فتاة ترمي للحمائم فتاتاً

من الخبز، وهي تقرأ في كتاب جالسة على مقعد تناثرت عليه الأوراق الصفراء. فخطفت الخبز منها مسعوراً، فاستشاطت، ثم دُهشتْ عندما رأتني ألتهمه. ثم رأيت نظراتها كأنما تقول "ليست لندن المدينة التي يتضور فيها المرء جوعاً". ولمحت سلة قمامة عامرة قرب المحطة تماماً، ولكن شخصاً كان قد تقيأ داخلها، ورأيت فيها جوارب قديمة ومخاطاً وطعاماً فاسداً، فتركتها وقد قررت أن أجلس عند درج المحطة بجانب المنتزه الخريفي.

كان المطر قد تساقط خلال الليل، وهلّ الفجر مصحوباً بالضباب، وعندما تنفس الصباح رأيت الشمس تصعد على أوراق اللبلاب فتلتمع حبات المطر. أما الآن فقد تبدى المنتزه أشبه بمعجزة: أوراق شاحبة، أشعة ذهبية، أعشاب ندية، وقوس قزح من بعيد، وعلى مقعد جلست فتاة شقراء وحيدة تقرأ، وإلى يميني في أسفل الدرج وقعت عيناي على مغربي يتسول، كان شعره أسوداً كثيفاً مشعثاً، يخفي تحت بطانية ثياباً أشبه بأسمال. وعندما تكشف لي وجهه بدا بوهيمياً موحشاً أشبه بعفريت منه بإنسان، وكان يستجدي كل نازل بألفاظ غريبة لم أفهمها، وسرعان ما عرفت سبب تلك القمامة في السلة المجاورة. وهبط رجل يأكل وقال له أتكمل هذه عني فأجابه نعم وخطفها من يده وراح يلتهمها... وجلست أستعطي في أعلى الدرج، ولكن نبرتي كانت تخونني، فقد بدت كأنها تصدر عن أمير وليس عن فقير، ولكن الجوع الذي اشتد علي بعد قليل جعلها تستميل بعض

النفوس، فما إن مضت ساعة حتى كانت بضع عشرات من البنسات قد تجمعت أمامي. ومر رجل وقال لي:

- أنت تخالف القانون.

فأجبته:

- بلا سقف بلا قانون.

وتركته ينزل وقد تذكرَ ذلك المثل السويسري، ومر آخر وقال:

- صحتك جيدة والحمد لله.

وتحيرت بما أجيب وتركته يمضي، وفجأة رأيت المغربي ينقض علي مسعوراً ويأخذ النقود من أمامي، فحاولت انتزاعها منه، ولكنه لطمني بقبضة يده على صدري أدركت منها أنه أقوى مني، فتركته، وقال مزمجراً بلهجة مغربية وكأنه حدس بأنني عربي:

- هذا مكاني... وعليك أن تختفي.

وأشار بيده بحنق إلى الطريق والسيارات، ولأن البقاء للأقوى عبرت الشارع إلى الجهة الثانية من المحطة بأخلاق رياضية. وغابت الشمس فانقبض قلبي أكثر. كان "غرين بارك" من أكثر أحياء لندن ثراءً، ولم يكن في المحطة متسولاً آخر غيري، فجلست عند صحن الدرج مطأطئاً رأسي دون أن أستجدي أحداً، فقد اكتشفت أن مشهدي كافٍ لأن يستحثهم، وأن الإنكليز الذين يملكون صرافة في جيوبهم سيرمون لي بها حسب أفكارهم المسبقة عن الأمر: فقد يظهر على وجوههم أنه لا تعجبهم هذه الظاهرة، وقد يظهر عليها الاستعلاء عن أن يهتموا بشأني، وقد يبدون منخطفين مستغرقين في أنفسهم، وبعضهم

كانت تظهر الغبطة على وجوههم من شعورهم بالشفقة والتصدق، وكنت لا أفهم أبداً الذين تظل وجوههم حجرية فلا يحرك فيهم مشهدي شيئاً، وكان العديد منهم مسرعين ينشدون اللحاق بالمترو، وكثير منهم يبتعد عني كأنما يتجنب شري أو حتى رؤيتي، وظهر بعضهم ذا نظرات كاسرة وكأنني ألوث مشهد المدينة الأنيقة، وبدا الرجال يتصدقون أكثر من النساء، أما الشبان والمراهقين فلم يكونوا يدفعون أبداً. وتحول الخواء في معدتي إلى ألم، والألم إلى دوار، ثم إلى نقص في التركيز، وأخيراً خيل إلي أن الجدران تتهاوى. وتكدرَتْ السماء، وأخذت ترذ. فذهبت واشتريت بكل ما معي طعاماً، فتوازن العالم من جديد. واكتشفت أن أي تصرف سديد لن يصدر عني وأنا جائع. وعدت إلى مكاني فوجدت المطر قد بلله، فمِلتُ إلى داخل المحطة، فلم ألبث أن سمعت صوتاً من مكبر للصوت يأمرني بأن أقوم وأغادرها، فعدت إلى مكاني وأخذت أستجدي واقفاً. فمر مصري وأخذ يتفرس بي ويتفحصني من رأسي إلى أسفل قدمي، ثم قال بالمصرية:

- أنت عربي أليس كذلك؟

- نعم.

- من أين؟

- من جهنم.

- حسناً... سيظنك الناس في أسفل السافلين إذا بقيت هنا.

- أنا فعلاً في أسفل السافلين.

- لن تكون سوى كلباً في نظرهم.

- أنا حقاً كلب... منذ فقدت نقودي أصبحت كلباً.

- يا لحماقتك يا أخي... لندن تتعامل بمليارات الجنيهات كل يوم، وأنت لا تجد قوتك.

وأمسك بيدي وكشف عن ساعدي، ثم فعل بالأخرى، الشيء نفسه وقال:

- لو كنت غبياً... لو كنت مدمناً على المخدرات لما فتحت فمي بكلمة... ولكنك في صحتك.

- أين العمل؟

- إذا لم تجد عملاً بنفسك فأنت لا تستحقه... البحث جزء من الأجرة.

فأشرت بيدي يائساً بأن ذلك محال.

- كثير من الناس يعتقدون أن جلب النقود مسألة مستحيلة وهذا هو سبب كونهم بلا نقود.

- لا أرى منك سوى الكلام.

- ابحث بكل جوارحك... يجب أن تطال أظافرك كل شيء... يجب أن تكون مفترساً هل فهمت؟... أما أن تقول بأنك كلب فذلك عار.... ما هي مهنتك؟

- شاعر.

- شاعر!؟!

و ذُهل.

- ما بكَ شاعر وليس عفريتاً.

- وأنت تنتظر الآن أن تمر بك انكليزية ثرية لتحبك وتخطفك... أليس كذلك؟... يحتاج المرء إلى زمن طويل ليتحرر من الوهم بأن أحداً يمكن أن يساعده، أو يجعله غنياً، لأن الشعراء والكتاب على مر الزمن قد ملأوا القصص بالأميرات اللواتي تزوجن فارساً فقيراً نبيلاً، أو الأمراء الذين وجدوا السعادة في أكواخ الفقيرات، ولكن الحقيقة هي: اصعد السلم درجة درجة، وحكمتي أنا ووصيتي بعد أن مر علي ما مر على هذه الأرض: عندما تدرك أن أحداً لن يلتفت إليك تصبح غنياً.

وصعد الدرج ثم اختفى.

لا أعلم ما الذي عاد بي إلى البيكاديلّي. وإنني إذ أحاول أن أتذكر بالضبط ما الذي كان يمور في نفسي، يخيل إلي أن الازدحام كان يجذبني. لقد قضيت حياتي كلها كأي شاعر: "متبرئاً من العالم"، أبحث دائماً عن معتزل لأجلس وحيداً، أما تلك الأيام فقد كنت ألاحظ نفسي ألوذ بالبشر، وأشعر بالغربة إذا ابتعدت عن الحشود، وكأنهم يمكن أن يلتفتوا إلي أو يأبهوا بي، باختصار كان ذلك هو السبب الذي قاد قدماي من جديد إلى البيكاديلّي، المحطة التي تلي "غرين بارك". كان السياح متحلقين حول مهرج، وآخرون حول مطرب، وحلقة ثالثة حول مبشر، ولا أحد عالم بوحدتي أو مستعد لأن يصغي لكلمة مني، إذا لم يخطر بباله أن يلتقط صورة لشحاذي المدينة. أنا «الإنسان الصرصار» الذي قال عنه دوستوفسكي، أنا الغريب عن العالم وعلى الآلهة وعن نفسي. وفي وحدتي تلك، وفي خضم شعوري بالدونية، جعلت أنخرط في أحاديث وهمية مليئة بالمرارة مع نفسي: يا قصائدي التي لم يسمع بها

أحد... أيها القلب الذي تحطم كشظايا مرآة عكست أضواء القمر... أيتها الأشعار التي خطت خريطة حبي وفرحي ومغامراتي، لو أن أحداً قرأك، لو أنهم سخروا مني بسببك، لو أنهم اضطهدوني، لكنت رضيت كدليل أنهم يشعرون بوجودي: ولكن لم يكن هناك سوى الصمت كأن ما فعلته يعني الجن والشياطين وليس البشر... وفجأةً حين حلّ المساء صُعقت لمرأى رجل مرمي على الأرض متكور حول نفسه كأنه شيء من الأشياء، وذهلت كأنني لأول مرة أرى مثل هذا المشهد: يا إلهي كيف يمرون به كأنه شيء، وكيف غطى وجهه على هذا النحو كأنه على يقين كامل بأن الناس كلهم لن يكترثوا به؟.. وردّدت في نفسي هل أهديت الزمن مثلي قصائداً كلفتك سبعة وثلاثين عاماً؟.. وعندما قررت أن ألمسه اكتشفت أنه تحت الخدر ليس إلا. ومرت ليموزين فارهة بيضاء طويلة بعشرة نوافذ صبغَتْ أعين الفتيات بكثير من الحنين... إن تلك العودة إلى البيكاديلّي قد رسمت نسق حياتي في بريطانيا.

فبجانب حلقة المبشر كان ثمة فتاة باكستانية في العشرين من عمرها، سوداء الشعر، وراء تلسكوب صغير قد رصدت "زُحل" به، وأخذت تتقاضى جنيهاً من كل شخص يريد أن يرقبه، فقد ظل الكوكب المسحور لأسبوعين مرئياً لسكان المعمورة خلال دورته حول الشمس. ورغم أن تلك الفكرة المدهشة جعلت جيوبها تمتلىء بالنقود كانت تبدو مغتمة قلقة إذ أن السُحب التي كانت تتبدد وتنقشع بين حين وآخر لا تلبث أن تتجمع من جديد.

وكانت تتحدث للواقفين عن حلقات زحل الملونة الغريبة وعن هوايتها الفلكية، ثم قالت: إن الشمس ليست سوى نجم تافه من مائة مليار نجم تقع في مجرتنا، وهنالك ثمة مائة مليار مجرة أخرى، وأرضنا ليست سوى حبة غبار ضائعة في كون سحيق مليء بالعتمة، ومنذ اكتشافنا أن المريخ والزهرة خاليين أصبحت وحدتنا في الكون قاسية بلا رحمة.

ويبدو أن كلامها كان يتناهى إلى أذن المبشر فأجابها بصوت عال أضحك المارين بأن وحدتها ستزداد طالما أنها بعيدة عن يسوع المسيح، وأشار إلى السماء مزهواً:

- تأملوا توازن هذه الأجرام والمجرات أليست دليلاً على عظمته؟...

فأجابت مستفزَة أنه لم يعد ثمة ما هو غامض، فالقمر يدور حول الأرض بفعل الجاذبية، وتدور الأرض والقمر والكواكب السيّارة حول الشمس لنفس السبب، بينما تتنقل المجموعة الشمسية حول مركز المجرة بشكل لولبي، وبما أن الكون يمتد فإن المجرات كلها تتحرك كشظايا مقذوفة من الإنفجار الكبير الذي حدث منذ ستة مليارات سنة. وهكذا مثلما ترى لا يوجد شيء مريب كما تدعي سوى السرعات الكبيرة غير المتوقعة للنجوم حول مراكز المجرات والتي تُعزى إلى الجذب التثاقلي لمادة لا مرئية منتشرة حول المجرات تدعى بالمادة الخفية أو الثقوب السوداء. ثم أن كل هذا غير متوازن تماماً كما تظن، فالمجرات تتصادم، والنيازك تقصف الكواكب، والثقوب السوداء تبتلع النجوم...

كان صوتها يرن في الليل حاداً صافياً، لفت انتباه جميع الموجودين فقال:

- إنني أفهمك تريدين أن تأخذي جمهوري لتتقاضي جنيهاً من كلٍ منهم، وما الذي سينفعهم معرفة زحل إذا لم يعرفوا يسوع المسيح أولاً؟

فأشارت بيدها: "اذهب إلى الجحيم" مستاءة تاركة إياه فوق صندوق صابون فارغ يتوعد بالويل والثبور، وكنت قد اغتنمت فرصة انشغالها وأخذت أحدق في التلسكوب الصغير وقد بدا لي زحل كخاتم ذهبي بديع صغير، ولكنها لمحتني في آخر لحظة أبتعد:

- هيه... أنت... اعطني جنيهاً.

- لا أملك.

- لا تملك!!

- إنني يا عزيزتي متسول

- متسول!.. أتتسول بهذه الزنود المفتولة؟

- حسناً.. إنني لا أجد عملاً.

فحدقتْ بي مشدوهة كأنما تسأل نفسها شيئاً ثم قالت:

- من أين أنت؟

- من سورية.

- منذ متى؟

- منذ أسبوع.

- هل حقاً ترغب في العمل؟

فقلت لها متلهفاً:

- أجل.. إنني أكاد لا أعرف كيف أقتات

- ماذا تستطيع أن تفعل؟

- كل شيء

- يعني أنك لا تُحسن فعل شيء

- ما اسمكِ؟

- زهرة.

وشاع لحن كمان وسط الساحة، سرعان ما لَفَتَ انتباه الآخرين فالتفوا حوله

- أتعرفين ما معنى كلمة "زهرة" بالعربية؟

- نعم، تعني: Flower.

- لـ "زهرة" معنى آخراً أيضاً.

- حقاً... أحقاً لزهرة معنىً آخراً.

- أجل إنها "فينوس" الكوكب الذي يلي عطارد.

وضمت خديها بكفين مرتعشين.

- يا إلهي... هل فعلاً تعني ما تقول؟. سأخبر عائلتي بذلك.

- لماذا غضبت من المبشر؟

- لأنه يركز في تبشيره لسبب مجهول على النساء.

فضحك كل من حولنا.

- وأنت بماذا تبشرين؟

- بالحب.

- والفلك؟

- العلم يقود إلى الحب، لأنه عندما تتفتح العيون، وتنضج العقول، تُحل معظم المشاكل، ويصبح القلب جاهزاً صافياً للحب.

- هذا كثير على فتاة في مثل سنك. كم عمرك؟

- تسعة عشر.

- هل أنت مولودة في بريطانيا أم في باكستان.

- أجل هنا.... وأنت هل تركت وطنك إلى الأبد؟

- أجل.... إلى الأبد.

- هل يُرمى الوطن ببساطة كثوب عتيق؟

- ما فائدة العالم بدون صداقة وفية، بدون حب عميق، ما فائدة سهرة بأكملها إذا لم تقال فيها كلمة واحدة من القلب، ما فائدة نهر من الأغاني إذا لم ترتعش الروح لإحداها؟

- هل أعجبتك لندن؟

- نعم.

- ألم تجد سلبيات؟

- أجل ولكنني غير متأكد...

- قل

- يميل المرء إلى الاعتقاد أنهم يؤمنون أن النقود فقط تجعلهم سعداء، إذ لا تُلمح بسمة حقيقية على الوجوه إلا عندما يقبضون. بحيث أصبحت متأكداً مما كتبه كولون ولسون في الماضي من أنه لاتجري عبادة الغني في العالم كله مثلما يحدث في بريطانيا.

- وغير ذلك.

- هـذا مـا لحظتـه حتـى الآن: الأثـر الميكـانيكي للنقـود علـى أدق حركاتهم.

- كم أنت مخطىء يا مسكين...

- ما رأيكِ؟

- في وقت لاحق... في وقت لاحق....

- ماذا تقصدين؟ هل سنلتقي مرة أخرى؟.

- ألست تبحث عن عمل؟

- فقلت بلهفة.

- أجل... أجل.

- ونحن بحاجة إلى من يساعدنا لنقل الأثاث إلى البيوت، لقد افتتح والدي مخزناً لبيع الأثاث القديم، ونحن بحاجة إلى الحظ أقصد إلى بيع جيد وإلى من يقوم بنقل الأثاث إلى الطوابق العليا، ما رأيك؟... خذ.

وأعطتني كرتاً صغيراً مدوناً به عنوان المحل ورقم الهاتف ناظرةً إلى سحنتي، فهُلِع قلبي، وتناولته وأنا أرتجف، فقالت:

- غداً في التاسعة.

- حسناً... إلى اللقاء...

وابتعدت مسرعاً خشية أن يتغير شيء، ولم أصدق ذلك تماماً حين أصبحت وحدي... وفتحت ذراعي معانقاً الليل فرحاً مغنياً حيث وجدت نفسي وحيداً قرب نهر التايمز في هدوء المياه الفاحمة، ولأول مرة في حياتي أغني بصوت مرتفع جداً، في تلك الخلوة، لقد كنت سعيداً وصوتي عال درجة أنني اكتشفت كيف يضع المطربون العاطفة في

أصـواتهم، وكيـف بقـدر مـا تكـون تلـك الشـحنة عميقـة وصـادقة يبـدو صوتهم مؤثراً.

كنـت قـد وصـلت إلـى محطـة سـاحة ترافغلـر المتاخمـة للبيكـاديلّي، فوجـدت التـايمز عميقـاً سـاحراً، وكانـت الضـفة مزدحمـة بالأكشـاك والبسطات المتروكة الفارغة وكأن ثمة عيداً قد انفضَّ للتو، ومن بعيد ظهرت ساعة "بيغ بن" والبرلمان تحت الرذاذ الذي أخذ يتساقط فوق الموج والكنائس والأضواء. مشيت وحيداً، وفكرت طويلاً بزهرة: ها هي فتاة رائعة قوية يشغل عقلها العلم ويداعب قلبها الحب، من ترى الذي تحبه؟ من المؤكد أنها تحب أحداً، وسألتقي به إذا ما عملت عندهم. "العلم يقود إلى الحب"، يا للسحر الذي غمر وجهها وهي تنطق بهذه العبـارة. وتسـاقط المطـر فـوق النهـر الأسـود الجـاري، واحتـرت أيـن سأبيت، مقاعد النهر مبللـة، وسيارات الشرطة تروح وتجيء، فوانيس الضفة ترسم ظلاً متوحداً لغريب لا يزال هائماً تحت المطر، يمر بي ثم ينعطف فوق الجسر. وفجأة تبدت لي بين المصطبات والأكشاك علبة أشبه بدرج كبير تحت بسطة للشواء، فتمددت بها، ولكن ساقاي ظلتا مثنيتين إذ كانت أقصر مما تسعني، ونظرت إلى موج الليل وحاولت الإغفاء، ولكن الريح الهابة من النهر ظلت توقظني بين حين وآخر، وظلت عيناي ترحلان مع المجرى، ولكنني ظللت أقنع نفسي أنني سأنام لا محالة، وأن هذا أفضل مكان، وحاولت إغلاق الفتحة فشعرت بأنني أختنق، فرفعت الغطاء من جديد، ومر يخت لسيدة هولندية، وتناهت إلي ضوضاء الساهرين وصخبهم وضحكاتهم، ثم ابتعد فلم يبق منه سوى

أنوار واهنة ملونة تكلله من كل جانب. العلم يقود إلى الحب، أجل.... وقد يقود إلى مثل هذه العلبة! يا إلهي... لم انتهيت إلى مثل هذا الدرك؟ ولم أجد جواباً، ولكن عبارة قديمة لنيتشه رنَّت في ذاكرتي: "اليوم هو فقير! ليس لأنه أُخِذَ منه كل شيء، بل لأنه رمى كل شيء: ما يهمه لقد آن أن يجدَّ باستمرار.... وحدهم الفقراء يسيئوون فهم فقره الطوعي".

الفصل الثاني

----------1---

تحت السماء الملبدة كان ضوء الفجر الواهن الذي يكتنف النهر، مصحوباً بالضباب، وكانت باخرة حمراء تشق طريقها بهدوء رويداً رويداً باتجاهي. وخيل إلي أن مطر الليل قد تجمع في المجرى وأن منسوب النهر قد ازداد، وألقيت نظرة أخيرة على السماء الكَدِرة فوق النهر الكئيب ومضيت.

كانت المدينة مقفرة، وأكشاك الصباح لم تفتح بعد، وكان الجوع يعضني، ومؤخرة رأسي تؤلمني، واقتربت من كنيسة لأفتح بابها وكأن ثمة طعاماً في الداخل فكانت مقفلة هي الأخرى. ولكن قرب المدخل الجانبي الواطئ كان ثمة متشرد ينام وقد التحف ببطانية صفراء، وقربه زجاجة ويسكي وتفاحة فأخذتها ومضيت.

وعند محطة البيكاديلّي كان زنجي ينام في علبة من الكرتون، بجانبه إنكليزية ملتحفة ببطانية صفراء وقد غطى ساعديها الوشم وثقوب إبر الهيروئين. وكان البرد يتلصص على كل شيء، الوجوه شاحبة والعصافير ترتجف والنوافذ مغشاة. وكنت وحدي، أقضم تفاحة

وأتساءل عن اللون الأصفر لبطانيات المشردين، وكأن شخصاً ما قد وزعهم على كل متسولي المدينة.

وترددت إلى المرحاض أربع مرات لقد أصابني إسهال حتى الإعياء، ومع ذلك سرت ساعتين باتجاه شمال وسط لندن، حتى وصلت إلى العنوان المدون في البطاقة، مررت بشارع أكسفورد ثم قطعت شارع العرب، ومشيت بعدها ساعة كاملة حيث انتهيت إلى "كيلْبِرْنْ" في التاسعة تماماً، فوجدت المخزن لا يزال مقفلاً، وثمة لافتة على الزجاج كُتب عليها: "مطلوب عامل".

كان "كيلْبِرْنْ" حي للإيرلنديين في الزمن الماضي، وقد هاجر معظمهم بسبب اضطهاد الإنكليز إلى أميركا. وأخذ يحل محلهم تدريجياً أجانب من مختلف أصقاع العالم حتى غدا حياً للمهاجرين. فإلى الجانب الأيسر من مخزن الباكستاني مقهى إيطالي، وإلى جانبه الأيمن مخزن هندي للطعام، ثم مكتب ليبي للعقارات يليه مطعم صيني ثم مصبغة لرجل يوناني، وبعده مكتب للهاتف لامرأة زنجية ثم مطعم مغربي، وفي نهاية الشارع قبل أن ينفتح على طريق كيلْبِرْنْ الرئيسي صيدلية لرجل هندي.

وترددت من جديد إلى مرحاض في صالة لسباق الخيل، ثم طفت بشارع كيلْبِرْنْ الرئيسي المزدحم بالمحلات الواسعة من أوله إلى آخره، وعدت من جديد إلى مخزن الباكستاني. مررت من أمامه وهو يتحدث على الرصيف إلى رجل إيرلندي يملك متجراً حقيقياً لبيع التحف القديمة يلي المقهى الإيطالي. ثم دخلت المخزن فتبعني وقد ظنني زبوناً، ودخل

ورائي، فالتفت إليه عندما لم أعثر على أحد في الداخل، وكان رجلاً في الخمسين يتخلل الشيب سواد شعره، واندفع قائلاً:

- تفضل.. أنت أمام قطع من التاريخ.. هذه منضدة من السنديان الصلب، لا أحد يملك مثلها في لندن كلها... وهذه خزانة... غريبة أليس كذلك؟ إنها ببساطة عمرها مائة عام.... وهذا راديو، مُسَجل في كتاب التحف.. ويمكن أن يكون أول راديو من يدري!... وهذه الأرائك... أنظر... من قصر باكنغهام[1].. حسناً يمكنك القول أنها من قصر باكنغهام... إنها قديمة... قديمة جداً... وهناك... وأشار بيده إلى سرير عجيب.. ولكنني قاطعته:

- عفواً...

- ماذا...؟... إنه...

- إنني...

- ماذا؟

- إنني لست زبوناً.

فتبدلت لهجته المسرحية.

- ماذا تريد؟

- إنني أبحث عن عمل.

- آه... نعم.

واتكأ على بيانو عتيق شابكاً كفيه.

1- قصر الملكة إليزابيت.

- من أين أنت؟

- عربي.

- أجل... تبدو كذلك.... أنتَ تقطن في كيلْبِرْنْ؟

- لا.

- أين إذن؟

- الحقيقة أنا لا أقطن.

- عفواً؟؟

- أقصد وصلت منذ أسبوع فقط.

- وأين نمت البارحة؟

- نمت.... نمت في صندوق عند النهر.

- صندوق.. نهر... ما الذي جعلك تبيت على هذا النحو؟

ونظرت بيأس إلى الأثاث القديم.... كان النحس الذي رافقني أسبوعاً لا يزال يغشى وجهي.

- قدري.

- هل جئت مهاجراً؟

- أجل.

- ماذا كنت تعمل؟

- كنت... كنت شاعراً...

- شاعر!؟.... وما الذي جعلك تكف عن كتابة الشعر؟

- لم يعد هناك قارئاً واحداً.

وتلفت حوله كأنه تذكر شيئاً... ونظر من زجاج المخزن العريض إلى السماء الرمادية الكالحة، وكأنه يخشى أنه يهطل المطر على الأثاث المطروح على الرصيف للفت الأنظار، وكان الإيرلندي لا يزال مستنداً إلى شاحنة المخزن المغلقة وكأنما ينتظره حتى يعود، ثم قال دهشاً:

- ولكن ما الذي ساقك من النهر إلى شمال لندن إلى مخزني...؟

- زهرة

- زهرة.؟.... ابنتي.؟

- لقد التقيت بها في البيكاديلّي... موجهة تلسكوباً نحو زحل... وأعطتني هذا الكرت

ومددت يدي به.

- آه نعم... يا للشقية....

وعصفت بوجهه المحبة فأردف:

- وكيف وجدتها؟

- منطلقة وخفيفة وتريد أن تطير.

- أجل، بسبب أنها تخالط أربعة أخوة تجدها قوية وذكية وعنيفة كالصبيان... إنها لا تلفظ كلامها إلا بعد أن تفكر طويلاً، ثم تلقي عبارة حادة، ولا تلغو إلا عندما تجتاحها الانفعالات... ولكنها للأسف في سجن أسطوري.

- سجن أسطوري.؟... لِمَ؟ في أي حي تعيشون؟

- حسناً... لقد أصبت... في أي حي نسكن... هذه هي المعضلة... وأي زوج سوف يكون لها؟.... إننا ببساطة لا نستطيع أن نخرج من جلدنا.

- إنها لا تقبل أي شيء يقيد انطلاقة روحها... إنها موهوبة... وإن عينيها لجارحتين... إن هذا الجمال كله ليجرحك بعمق، ثم يقول أنا بريء.

- يا إلهي هل أحببتها أيضاً؟

- لقد ضاع بلا عودة الزمن الذي كنت أنتظر فيه "الحب الكبير"، وأقول أنني سألقاه لا محالة، مهما طال الانتظار، إنني الآن أميل إلى القول: في حياة أخرى... في حياة أخرى سألتقي "الحب الكبير".

فمد كفه باتجاهي مصافحاً، ورأيت عينيه تتأملانني كأنما تقولان إنني مختلف أو إنني لا أزال خاماً وقال:

- حسناً.. أنا حسين... ما أسمك؟

فقلت كاذباً:

- سمير

- جيد، اجلس... وارو لي قصتك منذ البداية.

وجلسنا متقابلين على أرائك قصر باكنغهام وفوقنا على الجدران لوحات زيتية لها أُطُر توحي بأنها من غابر الأزمان، وما إن لمحنا الإيرلندي من الزجاج حتى عكف على متجره، وازدادت السماء حلكةً، وبدا شارع الصباح أكثر عتمةً من الغروب.

- ماذا أروي؟

- قل لي من أنت أولاً؟

وسرى في نفسي هدوء بعد توتر طويل، وخدر من الماضي، فأسندت خدي إلى كفي، واتكأت بمرفقي على ذراع الأريكة:

- يا إلهي... من أنا.... إنني إذ أتذكر أهم ما في حياتي، أذكرها من المراهقة. لقد أوقعتني عدة فتيات صغيرات في حبهن فحولن ربيع العمر إلى فردوس، ومع هذا ظللت أحلم بالحب الكبير الحقيقي، حب أرحب من الأرض كلها، مفتشاً عنه في تلال من المخطوطات والكتب والأشعار. وشيئاً فشيئاً تكونت نفسي من صمت تلك الأفكار، ومن عطر كل الوحدة، ومن طمأنينة تلك الأحلام. لقد بدا وكأن في قلبي جميع أناشيد الطيور، وعطر كل الورود، وحب، حب لا سبيل إلى وصفه يعكس قلباً شامخاً متفكراً، يلتمع في عينيّ ضياء ليس من هذه الأرض، ونظرة غريبة قدسية منتظرة، منتظرة "الحب الكبير". فكنت أفتح ذراعي لأعانق كل شيء، الطبيعة والريح والفتيات، أشهد بالمجان المسرحية التي يقدمها الله. وكما يقول الأصمعي: ظل الفتى يهذي حتى قال الشعر، هكذا أخذت نفسي ترشح، سطوراً وأغانٍ وقصائداً، وأخذت تلك الأشعار تؤلف كتاباً إثر آخر، ثم بدأت أموري تسير مثلما جرت مع ابن رشد.. فتركت الكتابة

- ابن رشد.. أهو ذاك الفيلسوف العربي الأندلسي؟

- أجل.. لقد كتب ابن رشد مؤلفاته بعدما انهارت الحضارة العربية.. في عصر الانحطاط.. فظلت منسية ثمانية قرون.

- ولكنك شاعر ويجب أن تصرخ.

- بالضبط هذا ما كنت أقوله لنفسي، وكنت أقول أيضاً: ما وراء الأمل واليأس يختفي وجه الإله[1]، ولكن لم يتغير شيء، ظللت أشعر أنني لا أكتب سوى للأشباح.

- وماذا الآن؟

- لا أعرف يتراءى لي أن علي أن أودع الشرف والحرية والحب وكل الأفخاخ والأساطير التي....

- التي جعلتك فقيراً.

- لا.. ليس تماماً.. إنني لم انتبه لذلك كثيراً... ولكن التي جعلتني مهمشاً لا قيمة له.

- لا كرامة لنبي بين قومه، أليس كذلك؟

- والحق: لا كرامة لفقيرٍ ولو كان نبياً... لو توخى المسيح الدقة لكان قال هذا... لأن القيصر يورسلاف أعلن المسيحية الدين الرسمي في روسيا بمجرد مرسوم[2] في حين فشل يسوع على مدى تبشيره كله في جعل أكثر من بضعة عشرات يعتنقون المسيحية.

- وماذا الآن، هل قررت أن تعبد المال؟

- لست أدري..... أخشى أن يكون الجواب "أجل".. وأخشى أن يكون لا يمكن التخلص من الماضي.

- وتودع احترام الجميع؟

1- كازانتزاكيس.

2- كانت روسيا حتى سنة الألف ميلادية لا تزال وثنية، حتى وجد القيصر يوروسلاف أنه لا يمكن تحسين العلاقات مع أوروبا مع الإبقاء على هذه الحال.

- أي احترام!.. لم يكن أحد يحترمني لأنه لم يكن أحد يعرفني.. كل الذي يعرفونه عني أنني ذلك الرجل الذي لا يملك منزلاً ولا مالاً ولا سيارة.. لم يكن بينهم من قرأ كتاباً أو اهتم بالفن أو شغفه الحب.

- وأنت ما الذي جعلك تقرأ كل هذه الكتب؟

- عشت في زمن كان يقال فيه: من يقرأ كتاباً يساوي كتاباً، أما الآن فهم يقولون من معه ليرة فهو يساوي ليرة لقد تغير كل شيء، وتحطم قلبي.

- ما الذي جعله يتغير؟

- لقد أدى التفجر السكاني إلى تفشي الفقر.. لم يعد أحد مطمئناً إلى مستقبله علاوةً على مستقبل أولاده.. حتى الأغنياء باتوا مذعورين...

- والحل؟

- لا أعتقد أنه يوجد حل! إن نسب التفجر السكاني تتضاعف وتغدو متوالية توقع الدوار في الرأس. في الوقت الذي لا تجرؤ فيه السلطات مجرد أن تعلن مكمن الخطر كي لا تخدش الشعور الديني.

- أيعقل أنه لن ينقذ المرء بعد الآن سوى المال؟

و أحنيت رأسي.. كان قد بقي قليل جداً لكي أبكي.. أعمق جراحي تُنكأ.. وقلت:

- في حياة أخرى.. في حياة أخرى سأصبح شاعراً كبيراً

وفجأة أردفتُ:

- هل هناك مرحاض في المحل؟

- ماذا؟

- هل ثمة مرحاض في المخزن؟

- أجل هناك.

عادت نوبة الإسهال تنتابني، فمضيت إلى دورة المياه وعدت فوجدته يساوم زبوناً، وما إن دنوت حتى كان قد غادر فنظر إلي قائلاً:

- أرأيت كيف يمكن أن تكون لطيفاً مع الزبون؟! إن لسانك هو الذي يجلب النقود. الزبون عندي هو أهم شيء في حياتي، وأنا معجب جداً بالمثل الياباني الذي يقول: "يجب أن تركع دائماً للزبون". فلا يجب أن تطغى شخصيتك بل يجب أن يبقى دائماً هو السيد بينما يطغى ذكاؤك على كيفية إخراج النقود من جيبه. ولهذا يجب أن تتقن فن المساومة. وأولى القواعد في هذا الحي الذي نقطنه هو أن تميز بين أن يكون الزبون إنكليزياً، وهذا نادراً ما يحدث، وبين أن يكون من العالم الثالث: ففي الحالة الأولى يجب أن تنطق بكلمة شرف واحدة لا تبدلها تكون بمثابة أقل سعر يناسبك، لا تخفضه أبداً، إذ سيعتبر ذلك نقيصة ويفر من وجهك، إن السعر الأول الذي تطلبه بالنسبة إليه هو السعر الحقيقي، وإما أن يشتري وإما أن لا يشتري. أما في الحالة الثانية فعليك تدريجياً أن تفهم عقلية أهالي "كيلْبِرنْ"، الذين ليسوا سوى خليط غريب من شعوب هاجوج وياجوج، ولكنهم يتفقون في عقلية واحدة أنهم من العالم الثالث، وأنت كشاعر من هناك أدرى بهم. وأكثرهم مساومة الأتراك، إن التركي ليساوم من أجل إرضاء طبيعته المساوِمة وليس من أجل خفض السعر، فإذا ما عاملته كأوروبي سيعصف به الغضب. وأهم شيء أن تنتبه أنه لا يوجد قاعدة عامة للبيع، من قبيل أن ترفع السعر ثم

تبدأ بخفضه تدريجياً، لا..، أبداً، فحسب السلعة: فيما إن كانت مرغوبة أو أنك تريد أن تتخلص منها، وحسب الزبون: أنظر إلى سيارته ووجاهته، لاحظ جهله أو معرفته بلعبة المساومة. وحسب الجنس: إن المرأة تعطيك السعر الذي تريده إذا بدوت ظريفاً. أو قلت لها إنها جميلة. اللسان... اللسان يفتح أمامك الآفاق، يجب أن تظهر السلعة مدهشة رخيصة لا أحد يملك مثلها، ويجب أن تنعكس جودتها على عينيك ووجهك، فينتقل ذلك إلى الزبون بالإيحاء، دون أن تأسره بشخصيتك إذ كما قلت لك يجب أن يبقى هو السيد، ببساطة كل حالة يجب أن تُدرس من قِبل سرعة بديهتك دراسة تامة حالما تلمح الشخص أو تسمع نطقه، حتى تخرج فائزاً. ثم أنه ليس عليك أن تصب اهتمامك على كل داخل وخارج من المحل، فهناك كثيرون يدخلون للفرجة فقط، وقد يدخل بعضهم هرباً من البرد فيتصنع المساومة ليدفأ، وقد تدخل امرأة لتعيد تصفيف شعرها على إحدى المرايا، وعندي شاب غريب كلما مر بالواجهة يدخل ويعزف على البيانو ثم يخرج. باختصار ستفهم زبائن "كيلْبِرْنْ" من أول نظرة في المستقبل، صحيح أن هذا حي فقير جداً، ولكنه ملائم لبضائعنا، فمن سيشتري تلفازاً قديماً أو ثلاجة مستعملة، أو تلك الكراسي التي عفا عليها الزمن في حي مثل "الكوخ السويسري" أو "ريتشموند" أو "كينغستون"؟ أما القطع الأثرية فإن زبائنها سيظهرون لا محالة، علماً أنه ليس عندنا شيء حقيقي، فالقطعة الأثرية يجب أن يكون عمرها أكثر من مئة عام، ويجب أن تضعها على الرصيف في الخارج حالما تفتح المخزن.

ونظر إلى الغيم من الزجاج، وأكمل:

- وأن تنتبه للمطر، ستكون في المخزن لوحدك في المستقبل، وولديَّ سيساعدانك عندما تكون الحمولة ثقيلة فقط، أما أنا فسأغادر ثم أعود بين حين وآخر، فعندي مخزناً آخر في "كينزل غرين"، وعلي تأمين هذه السلع التي أمامك من البيوت التي تهبها مجاناً مقابل تنظيف الشقة والتخلص من أثاثها الذي لا يباع. سيطل عليك أولادي بين حين وآخر وعليك أن تسمع مشورتهم. وأنا واثق من أنك لن تسرقني فقد أدركت عقليتك تماماً، إن البائع يصبح عالماً بمادة النفس في مرحلة ما، ويدرك أسرار الحي... ولكن بالمناسبة هل ستقتنع بالعمل في حمل الخزائن والأثاث وأنت مجرد مثقف لم يفعل ذلك أبداً؟.. أنا لم أتعامل مع شاعر من قبل!..

فأحنيت رأسي بخجل، ثم تنهدت، وقلت بكآبة:

- يبدو أن على البذرة أن تموت وتدفن في التراب حتى تنبت من جديد[1]

- لا شر عليك.. وهذا مرَّ معي قبلك... أنا في الحقيقة من كشمير، وبعد أن عملت هنا عشرين عاماً، ذهبت إلى الباكستان وبنيت منزلاً جميلاً أشبه بقصر.. ومع ذلك لم ترق لنا السكنى هناك فعدت مع أولادي الخمسة إلى لندن... أرأيت!؟ أنت وقعت في فخ الثقافة وأنا وقعت في خمسة أفخاخ!!.

1- المسيح.

خمسة أفخاخ!!.. يا إلهي.. أيعقل أن نفس المرارة تنتابه؟! وأن لا أمل للإنسان على هذه الأرض بالفرح..

- أما عن الأجرة فسأعطيك جنيهين ونصف فقط في الساعة، لأنك لن تكون أبداً تحت أي ضغط... ولأن المشروع لا يزال جديداً... ولأنك لا تتقن البيع، وقد تقف طوال النهار لا تعمل شيئاً... وستنام هنا.... على أرائك قصر باكنغهام، ريثما تجد غرفة.... اتفقنا؟

فأومأت بخشوع بأن نعم.

- إذن أَزِلْ الغبار عن الأثاث.

وذهب إلى أعماق المخزن، وجلس وراء مكتب يفض كومة من الرسائل، بينما عكفت على مسح السلع، ثم وقفت عند الباب. كانت الأجرة الفعلية في ذلك الوقت أربعة جنيهات، ومع ذلك لم أجد ما سأتقاضاه في ثماني ساعات زهيداً، ونظرت إلى الطريق الحزين. كان يخيم على الشارع هدوء شتوي، غيم رمادي، وظلال البرد تغشى الأرصفة، وفي البعيد البعيد بدت سحب معتمة تزحف... يا لهذا العالم: كل الذين أحببتهم كانت قلوبهم في برودة الثلج، إلا زهرة. يدهمك الحب دون أن يتمهل حتى تكون في ملابس جيدة، أو في كافتيريا حالمة، أو بعد أن تستكمل تسريحة شعرك، يأتيك فجأة كما الريح على غصون الياسمين. ولكن لماذا كذبتُ عليه، لماذا لم أعترف؟ يا لهذا العالم.... إن عبارة أنا أكره أسهل بكثير من عبارة أنا أحب. فلتغفري لي يا زهرة كذبي وخريفي.

كان طيفها لا يزال يغشى مخيلتي، وكنت في تلك الأيام كلما أوغلت في السن أكتفي بأن أحب "الحب" الذي توحي إلي به الفتيات، وأردد: في مكان ما.. بعد الموت. بطريقة ما. سألتقي بكل أحبائي.

كان الطريق سيارات منسية متوقفة، وأوراق خريف، وفي الناصية، على لوحة كبيرة للإعلانات، كان حزب المحافظين يدعو على لسان جون ميجر: لم نكن يوماً من الأيام أفضل مما نحن الآن، وتحت اللوحة تماماً كان مخمور إيرلندي، أشقر الشعر، ممدداً فاقد الوعي قرب علبة بيرة فارغة. ودخل زبون إلى المحل فهرع حسين من وراء المكتب قائلاً: اتركه... اتركه لي. وبدأ تمثيليته من جديد، مختتماً بالركوع. ثم دخل شابان أحدهما أكبر من الآخر بعدة أعوام، ولما سألتهما عن خطبهما قالا لي:

- من أنت؟

وحضر حسين قائلاً:

- هذان ولداي الكبيران "أَمَرْ" و "أمران".

فمددت يدي مصافحاً الصغير قائلاً:

- عُمَرْ أم قَمَر؟

فأجاب مجتهداً في لفظ حرف العين:

- عمر

ولكن والده قال بسخط:

- لا عمر ولا قمر وإنما "أَمَرْ"

ولم أفهم سر حنقه إلا لاحقاً، فقد كان ابنه الصغير يميل إلى عصبية إسلامية يريد تجنبها. وكان من الواضح أن الآخر اسمه "عمران" ومددت يدي وصافحته، وقلت له إن في القرآن سورة تدعى "آل عمران" فازداد الأب غيظاً. وقال هيا انقلوا المبيعات إلى الشاحنة.

وأثناء التحميل قلت لهما إنني عربي وإنني سأساعدهم في العمل في المخزن، وبينما كنت أنقل بعض الكراسي زحزحا خزانة هائلة مرعبة، ووضعاها في الشاحنة. وبينما بقي عمران في المخزن مضينا نحن الثلاثة لإيصال الأثاث. كان الأب هو الذي قاد في الطريق، وجلست أنا في الوسط، واتكأ عمر على النافذة، وبدت الشوارع جنة خريفية من الأناقة، ولم يلاحظ الاثنان ذلك، وسأل حسين وكأنه يطرد الملل:

- لم أفهم لماذا قرأت كل هذه الكتب!؟

- كنت أظن أن الغرقى بحاجة إلي أنا الطائر فوق نهاياتهم، وأرى اليوم أنهم لا يشعرون أنهم غرقى. فأي حاجة لهم إلى أمثالي، ما داموا سيُنفذون بموت آخر.

واستعرتُ هذا الكلام من "إنسي الحاج"، ونسبته إلى نفسي، ولم يفهم أحد منهما طبعاً شيئاً، وظللنا صامتين طيلة الطريق. وفجأة توقف قرب عابر سبيل قائلاً لعمر: اسأل أين تقع محطة "السنديانة الملكية"، ومد الآخر رقبته من النافذة، فأشار عابر السبيل بأن علينا العودة إلى الخلف حتى نصل إلى الجسر، فتأفف السائق وما ان بلغناه حتى سألنا عن شارع "الماء السلسبيل" فتعين علينا الرجوع إلى النقطة التي كنا

بهـا ممـا أثـار سـخط الأب وظـل الحنـق ملازمـه حتـى وصـلنا إلـى البنـاء المنشود فقال:

- هيا الوقت يضيع.. اسحبوا الخزانة إلى الطابق الرابع عشر.

فصـعد عمـر إلـى الشـاحنة ودفـع بهـا إلـى الأرض، وعنـدما حاولنـا رفعها إلى المصـعد، كـادت تتكسـر ضـلوعي، فأبـدلنا مكاننـا وفشلت مـن جديد فساعدني حسين في استنهاضها، ولكن ما إن صعدنا بضع درجات حتى أحسست الخور يتـآكلني فوضـعتها علـى الأرض مـن جديـد، ونظـر عمر إلى والده، ولم يحر الآخر جواباً، فانتزعتها من جديد حتـى وصـلنا إلـى المصـعد. أمـا فـي الشـقة فقد أحـدثْتُ فجـوة فـي ورق الجـدران وأنـا أصـدم طرفهـا بـه، فهـرع حسـين إلـي واشـتعل صـاحب المنـزل غيظـاً. وكـدت أكسـر مـرآة وأنـا أحـس عزائمـي وقـد انهـارت. وأخيـراً هبطـت بمفـردي وأنـا أشـعر باليـأس وجلسـت قـرب الشـاحنة مطـأطىء الـرأس مـردداً: فـي حيـاة أخـرى... فـي حيـاة أخـرى سأصـبح غنيـاً. وأدركـت أن كتبـي سـلبتني لـيس فقـط سـبعة وثلاثـين عامـاً وإنمـا بأسـي، وقـوتي التـي سـأقتات بهـا، لقد ضـاع العمـر كلـه، ولا تنتظرنـي الآن سـوى شـيخوخة بائســة، وحيــاة وســط المتســولين. ورأيتهمــا يخرجــان مــن المصــعد، وانتظرت حاني الرأس أن يصبا جام غضبهما علي، ولكن حسين ربـت على كتفي:

- قم ليست كل الخزائن ثقيلة.

ومضى إلى الشاحنة وجلس وراء المقود:

- وستتعلم يوماً بعد يوم حمل الخزائن.

كانت في رحابة صدره شفقة، شفقة من العالم الثالث، ليست بوذية أو إسلامية، شفقة من تمرغ بوحل الغربة طويلاً ثم خرج منها منتصراً، ليعود إلى باكستان ويبني بيتاً جميلاً.

وهدر المحرك وانطلقنا من جديد.

- الحياة جميلة جداً... والكفاح هو الذي يجعلها كذلك: لأنه يفتح في داخلنا صمامات للسعادة لم نكن نعيها... وهذه السعادة تجعل الخزائن خفيفة والعينين منفتحتين.

ولم يقل شيئاً آخر طوال الطريق، ولم أسأله كيف تجعل السعادة الخزائن خفيفة، لأنني تذكرت بعد برهة تَخَيلْ كازنتزاكيس في كتاب "القديس فرانسيس" أن رجلاً تبع يسوع وهو يجرجر الصليب لاهثاً على الجلجلة والدم يسيل من إكليل الشوك على وجهه، والسياط تلهب جسده، وقال له مشفقاً:

- دع عنك ذلك الصليب الثقيل.. واعترف بأنك لست ملك إسرائيل.

فالتفت إليه وأجاب:

- إنه ليس صليباً... إنه زنبقة!..

ورق الخريف من جديد يتطاير، والمدينة الفاخرة تنداح أمامي منزلاً منزلاً. إنها لم تلبس أجمل حلة لها كما هي الآن منذ بناها الرومان عام 55 قبل الميلاد. حسين ينظر إلى ورقة مدوناً بها عنوان جديد، ثم يتوقف قرب بيت قرميدي.

- أنزِلا البراد وضعاه في المطبخ، ثم عودا بالبراد القديم الذي يريدون رميه لأنه يصدر صوتاً.

وهكذا فعلنا، ولكن البراد لم يكن في المطبخ وإنما في غرفة نوم زنجية، قد وضعت فيها الفرن والغاز والغسالة والتلفزيون وكل أدوات المطبخ، وكانت رائحتها أشبه بجحيم من الكربون، وقلت لها:

- افتحي النافذة.

ولم تفعل، حسناً إن الزنوج يخشون كثيراً من البرد، وعدنا بالبراد القديم الذي يضايقها في النوم، وقد بعناه لاحقاً بنفس السعر.

- اللعنة إنها لا تملك سوى غرفة واحدة.

دمدم عمر، وهو يطبق باب الشاحنة التي انطلقت بنا ثانيةً إلى مكتب فتاتين جزائريتين، إحداهما جميلة كملكة، وكان فارغاً فوضعنا الكراسي في منتصفه ولكن طاولة المكتب التي نحملها كانت أعرض من أن تلج في الباب، فعمد حسين إلى فكها، وعندما غادرنا وجدنا شرطي المرور قد وضع على زجاج الشاحنة مخالفة بعشرين جنيهاً، وكانت الجزائرية تضحك من النافذة وهي ترانا نستعر من الغضب، وظل الأب متجهماً حتى وصلنا إلى الشقة التي طُلب منه إفراغها وتنظيفها، حيث فوجيء بالأثاث جديداً أكثر مما توقع، فانفرجت أساريره وملأنا الشاحنة وأفرغناها في المخزن، وكنا نتطير من التعب ولكن أنا الوحيد الذي جُرِحَتْ يداه واسودَّ وجهه وتمزق بنطاله. فعمد عمران إلى الهزء مني، مشيراً إلى وجهي، مقهقهاً، فانكفأت إلى نفسي ووقفت عند الباب أستريح، وغنيت:

أنا مش سَوْدا بس الليل

سودني بجناحو

وخرج كل من عمر وعمران، وركب الأول سيارة "فورد" حمراء والآخر "تويوتا" رصاصية وأقلعا إلى منزلهما وتابعت:

مرقو الخيالي ع الخيل

تركوني وراحو

كان العصر قد بدأ يحل، ولكن السحب السوداء جعلته يبدو كغروب كالح، ثم أخذت تمطر، فجائني صراخ حسين من أعماق المخزن:

- أَدخِل بسرعة الأشياء التي على الرصيف.

فشرعت بترتيبها فوق الأثاث، إذ كان المخزن مكتظاً لا يتسع، وفجأة دخل صَبيان صغيران بملابس مدرسية وقال أحدهما بلهجة آمرة:

- من أنت؟

فقلت:

- عفواً؟

فأجاب الآخر بنبرة قاسية بريئة آمرة مشيراً بيده إلى الأشياء:

- كيف تضع السلع المبللة على الخشب غير المبلل.

فارتعدت، وجعلت أنظر هنا وهناك، فأغرق الخبيثان في الضحك، ومضيا إلى المكتب حيث يجلس والدهما، ووضعا الحقائب المدرسية فوق بعضها، وأخذا يتحدثان معه ويشيران إلي بأنني أحمق، ثم نادوني وأعطاني الأب نقوداً وطلب مني إحضار عشاء من المطعم الإيطالي المجاور، ولكنني لم احفظ كلمة واحدة من أسماء الأكل، فأخذ الولدان يضحكان في خفية عن والدهما فقلت أكتبوا لي الأسماء على ورقة

وسوف أمضي إلى الصيدلية وأحضر كل شيء، فانفجر الولدان مقهقهين، ونظر إلي الأب وقال:

- هاي هاي... تبدو الآن ممثلاً.

وظل الصبيان يضحكان حتى عدت بالأكل فتركتهم يأكلون ثم وقفت من جديد عند الباب وحيداً، وكان المساء قد أعتم، والمطر ظل ينهمر، فدخلَتْ إيرلندية سكرانة تترنح وبيدها زجاجة ويسكي وكأس، فوقف حسين والطعام في فمه مشيراً لي بيده:

- أخرجها... أخرجها.

وسُمع الرعد من بعيد، وأُضيئت السماء، فأغلقتُ الباب ووقفت وراءه أنظر إلى العاصفة. فدخل رسام وظنني صاحب المحل، وطلب أن يرسمني، فأشرت إلى حسين، فذهب إليه وعاد خائباً.

وفجأة دخلت زهرة.

فتواريت بين الخزائن، ولمحتها تقف عند إحدى المرايا وتصفف شعرها، ثم راقبتها بلوعة وهي تلتفت إلى البيانو العتيق وتعزف "أوبريت عايدة". ثم طارت إلى المكتب، وأحسست كأن الأرض تريد تلثم قدميها فلا تستطيع إنها تطير طيراً. وأخذَتْ تغني أغاني باكستانية وأخواها يسخران منها، وهي تزيد من لوعة صوتها، وقد دهم جمال وجهها شرارات حب خالص لمراهقة مغرمة بأن تُعَلِّم عينيها وخصلات شعرها الغواية. لقد بدا أنها كانت سعيدة ثم مالت إلى إضحاكهم، وأخذت تحكي برهبة قدسية ما جرى بينها وبين ساحرة رأتها في النوم وأخواها يغرقان في الضحك، ثم قال الأب:

- الصحف تتحدث عن مُذنَّب ينطلق إلى الشمس.

كان القرن العشرون يسرع بالإنتهاء، وكان مُذنَّب "هيلبوب" يسرع إلى أقرب مدى ممكن من الشمس منذ مئة عام، وأجابت:

- أعلم... أعلم.

- لا تبدين مهتمة.

- لأن ثمة نبأ آخر طغى على هذا.

وبدا على وجهه الاستفهام، فأردفت:

- لقد أصبح بالإمكان الإقلاع بأسرع من الضوء

ولم يبد عليه أنه فهم، فأكملت:

- عندما ينحني الزمنكان[1] نتيجة وجود طاقة سالبة فإن مسالك دودية يمكن عبورها تستطيع أن تؤدي دور أنفاق نحو أجزاء من الكون بعيدة عنا بسرعة تفوق سرعة الضوء.

لم أفهم كيف يمكن أن تكون الطاقة سالبة، وكيف يمكن التنقل بأسرع من الضوء دون أن تتزعزع النظرية النسبية. وقد قالت لي بعد عدة أشهر إننا لن نسبق الإشارة الضوئية بإتباع طريقها نفسه بل بطريق أخرى مختصرة ناشئة عن التواء الزمنكان. وظل كل ذلك غامضاً بالنسبة لي، فقد كنت غارقاً في العمل حتى أذني، مكتشفاً كيف لا يمكن للفقير أن يميل للعلم والحب والفن مما يرميه في رجعية دينية تعلمه الكره. وظللت أتساءل في

1- الزمان - المكان.

ساعات الصفاء وفي الآحاد عن سر تلك الطاقة السالبة، تقفز إلى ذهني ثم أُغيبها وقد سألتها ذات يوم:

- هل يمكن لمنطقة من الفضاء احتواء أقل من لا شيء؟

فقالت لي:

- أجل، لقد أثبتت الفيزياء الكمومية أنه يمكن أن تكون كثافة الطاقة في وحدة الحجم أقل من الصفر.

وأتبعَتْ شرح طويل كنت عاجزاً عن فهمه فيما لو قيل بالعربية، ولكنني فهمت كيف تحول كفاح أبيها الطويل إلى علم وحب وفن ورددت بيني وبين نفسي: على البذرة أن تموت وتدفن في التراب حتى تُزهر من جديد.

وقال الأب:

- هل أصلحتِ السيارة؟

فأجابت:

- أهذا ما كنت أتحدث عنه؟

وهتف أحد الأخوين:

- أبي... أبي لماذا بدلاً من استخدام مركبة لا نستخدم الكرة الأرضية المنطلقة أصلاً، بكل امكاناتها، وذلك بتحريرها من جاذبية الشمس ثم توجيهها بعد أن تسبح وحدها في الفضاء؟

دُهش حسين... ولكن زهرة سارعت وقالت أنه قد رأى البارحة فيلماً من الخيال العلمي، ثم سألت أخاها:

- حسناً وكيف نفعل ذلك.

- لماذا لا نستخدم الطاقة النووية الموجودة داخل الأرض، أليست نواة الأرض طاقة هائلة من الحمم؟

وهذه المرة علت الدهشة وجهها هي، ولكن الأخ الآخر سارع فقال:

- هذا أيضاً جزء من الفيلم.

فقالت:

- وماذا فعلوا بعد ذلك؟

- لقد أحدثوا فجوة هائلة من الهند، جعلت النيران تتدفق منها فتنطلق الأرض كمحرك نفاث.

فأردف الأب:

- هل أصلحتِ السيارة؟

- لا. ليس بعد.

- ماذا لو توقفَتْ بكِ في مثل هذه العاصفة؟

ونهضَتْ قائلة:

- سأفعل حالاً.

واصطدمَتْ بي وهي تغادر المخزن وتذكرتني:

- آه... هل قَبِلَكَ؟

فقلت خافض الرأس:

- أجل... شكراً لك.

- هل أنت مسرور؟

- أجل... أجل وكما يقول طاغور كنت أتسول من بيت إلى بيت، وعندما وصلت منزل الأمير أمسكني من يدي وأجلسني بجانبه.

- يا إلهي؟
- ألم تهدني عملاً؟
- وأنتَ أهديتَ اسمي معنى فلكياً.
- إن كوكب الزهرة متمرد مثلك.
- ماذا تقصد؟
- فكّري

وهمَّت بالخروج، فاندلق صوت الرعد من الباب المفتوح، واتجهَتْ نحو السيارة، ولكنها عادت فجأةً وبسرعة:

- أجل لقد تذكرت.. أن جميع الكواكب السيارة تدور حول نفسها مع عقارب الساعة.. عدا الزهرة.

فقهقهتُ موافقاً، وكما يرتجف الياسمين عندما تلثمه الريح هكذا ارتعش قلبي وهي تلوح لي بالوداع وتدخل إلى السيارة.. كم هي مسحورة خطاكِ على رصيف المطر! آه... قم يا أبي من ترابك، وعد بي صغيراً... لا تنسني أيها الحب... باركني... ومع هذا فإن اللقاء الحقيقي مع كل الذين أحببتهم سيأتي بطريقة ما بعد الموت. في تلك الأيام كان يروعني التفكير بأن الذين أحببتهم قد فقدتهم إلى الأبد، كانت أية محاكمة عقلية لذلك العزاء ستنكىء جروحاً عميقة عديدة نازفة إلى اللانهاية. نعم في مكان ما بين المجرات والعدم، سأودع اغتراب العالم برقصة أزلية مع كل الفتيات اللواتي لوعن قلبي بأعينهن الحالمة. وكما تتبع الطيور سفينة منسابة هكذا راحت تمر ببالي كل الفتيات اللواتي جرحن مراهقتي بحب لا يشفى، كل

النساء اللواتي سرقن لي زمناً من الجنة، كل القصص الغريبة والدموع السعيدة وهدايا النسيبان. كاد فجر المراهقة أن يعيد الدمع في عيني إلى التهطال. شذا الصبا، مزامير البراءة، مراسيم الهوى: كان الحب رياحاً على قلبي، حوَّل الأرض إلى أبدية.

ورأيت حسين يهرع من وراء المكتب وقد دخل أحدهم قائلاً دعه إنه ليس زبوناً إنه هارب من العاصفة وسوف أوقعه في فخي، واقترب منه فارداً ذراعيه قائلاً بما يُترجم إلى العربية: "شُبيك لُبيك عبدك بين أيديك"، وابتدأت مسرحية عرض السلع.... يا ألهي كم يتناقض كل هذا مع الصوت المنبعث من داخلي، شذا الحب لا يعبق من هنا، بل هناك حيث مرت قدماها على رصيف الليل، الحنين المستديم إلى المطلق لازال يقرع في صدري، لن يكون أبداً تلاشي الحلم هو السرور، عيناي تتجولان في ضباب الأمكنة الغريبة حيث مر حذاؤها، كم من الفرح والغيرة انتظرني في الماضي. وشيء ما في داخلي مخمور، عيناي صافيتان وصدري مزهر، وتذكرت أبياتاً لعاصي الرحباني:

يا حبيبي الهوى مشاوير
وقصص الهوى مثل العصافير
لا تحزن يا حبيبي
إذا طارت العصافير

وقصف الرعد من جديد، فقطع حسين كلامه منتظراً مما أتاح للزبون أن ينطق مشيراً بإصبعه:

- حسناً... حسناً... سأشتري من عندك شيئاً قد احتاجه فيما بعد... هذه.

- لقد أحسنت الاختيار... لقد أصبح لي نظرة خاصة بك.... أنت ذكي فعلاً... أتعلم إنني أحببتك؟

- هل تدور جيداً؟

- نعم أنها كاملة... في وضع جيد جداً.. لدرجة أنه يمكنك القول إنها جديدة.

- إنها تنطفىء لوحدها أليس كذلك؟

- نعم إنها أتوماتيكية... شديدة الحساسية للحظة التوقف.

- هل استُخدمَتْ كثيراً؟

- أبداً، أبداً. إنها على العكس وكأنها لم تُمس.

- كم آخر سعر لها؟

- لا نريد أقل من 35 جنيهاً.

- هل تقبلون أكثر؟

- يا لك من مزوح... الحقيقة أنك رجل سعيد.

- وماذا عن السعر.

- الحقيقة إننا نتوقع خمسة وثلاثون ولكن ليكن 25 لم لا.

- سأعطيك عشرين.

- حسناً... تعال لأكتب لك الفاتورة وإن كنتُ غير سعيد أبداً بهذا السعر.

- بل يكفي خمسة عشر.

- سأدون خمسة عشر في الفاتورة وإن كان ذلك قليلاً جداً. كم التاريخ اليوم:

- أُكتب السابع عشر.

- واسم حضرتك؟

- سلمان خان.

- حسناً ما هذا الشيء الذي بعتك إياه؟

- ماذا تقصد؟

- لأي شيء تستخدم هذه المكنة؟

- إنها غسالة للأطفال، وكيف تقول أنها كاملة وإنها... وإنها...

- سأكتب غسالة للأطفال.

- اسمع... أهي تعمل حقاً؟

- قصدتُ اسم الماركة...

- سأعيدها فوراً إذا لم تعمل.

- إنها كاملة كاملة.

آه... كيف يمكن السير على هذه الأرض دون أن تتلوث الروح.... كيف يمكن الإنعتاق من سلاسل العالم... متى أصبح كالحكيم التاوي لا أرغب بشيء؟ لا أحلم بشيء، لاآمل شيء، لاأفكر بشيء؟... كان عزائي الوحيد في تلك الأيام عبارة نيتشه: لتنم الفضيلة... لتنم.... فستسيقظ أكثر نضارةً.

ودخل ألباني يجر فراشاً وسأل حسين:

- بكم تأخذ هذا الفراش؟

- لو كان جديداً لأخذناه مجاناً.
- حسناً خذه مجاناً.
- أرني.
وأخذ ينظر إلى ماركته.
- إنه ليس ضد الحريق... ممنوع بيعه... لا أستطيع أخذه.
- حسناً... خذ خمسة جنيهات مقابل رميه.
- لا بأس.

وما إن انصرف... حتى قال لي: نظفه بالماء، ثم بعه بخمسة عشر جنيهاً، وعاد إلى المكتب. فتناولت الفرشاة وقِدراً من الماء، وعكفت على تنظيفه، ثم أوقفته قرب فراش آخر يماثله. وعدت ووقفت قرب الباب. وكان المطر لا يزال ينهمر، والبرق يضيء سحباً مدلهمة كالحة، ودخل شحاذ روماني منقوعاً، وبيده قصاصة كُتب عليها أنه غجري ولا يجد ما يأكله هذه الليلة، فأرسلته إلى حسين فعاد خائباً ليدخل المخزن المجاور ويدفع بالقصاصة إلى صاحبه. وحوالي الساعة السابعة دخل مشعوذ بنجابي وطلب أن يقرأ لي كفي، فقلت له: إن جيوبي فارغة. ففر في الحال ودخل المخزن التالي. وازداد الليل رعباً، وبدا الرعد أشبه بقذائف هائلة تدك حصناً. فاقترب حسين من الزجاج قائلاً: يا إلهي... لقد كنَّست العاصفة كل الزبائن وعابري السبيل، هيا أغلق المخزن ولا تفتحه حتى صباح الاثنين في التاسعة، هل لديك ما تقتات به غداً الأحد؟

فقلت خجلاً:

- لا.

وأطرقت برأسي، فهز جبهته يمنة ويسرة ناظراً إلى شكلي المزري:

- حسناً سأعطيك أجرة هذا اليوم

وأخرج من جيبه مفتاحاً، وأجرة عشر ساعات، قائلاً:

- لا أريد توصيتك، المخزن مخزنك كما هو مخزني.

فأومأت إليه مطرقاً بأن نعم فقال:

- بالمناسبة ما الذي جعلك تقرأ كل هذه الكتب؟

ونادى ولديه، وكأنما لم يلق إلي بأي سؤال، وهرع إلى الشاحنة وجلس وراء المقود، وتبعه الصبيان بعد أن فرقع أحدهما علكةً في وجهي قبل أن يخرج، وغاصت الشاحنة في نهر الليل. ونظرت إلى الجنيهات التي في كفي، وشعرت بتفاؤل غامر لم يحدث لي في يوم من الأيام، فوجئت أنا الذي كان يظن أن النقود لا تجلب له أي فرح بأنها تبعث بي كل هذه الحياة، وشُدِهْتُّ لفكرة أن قراءة خمسة وعشرين كتاباً لم تكن لتريحني من هواجسي وأحزاني كما فعلت هذه الجنيهات الخمسة والعشرون. وهرعت إلى اللافتة التي كتب عليها "مطلوب عامل" ومزقتها، ثم مضيت واشتريت دجاجة وافترستها، ثم استلقيت على أريكة قصر باكنغهام ونمت كالقتيل.

----------2---

تبدو لي الحياة أشبه بخرافة، تمر وراء زجاج المخزن، ويمر معها الغيم والطيور والبشر. هكذا شعرت عندما استيقظت: كان الصباح أشبه بحلم.... أين أنا.... ما الذي جرى البارحة؟ هل كل شيء لم يكن إلا قصة، كتبها الساحر الكبير؟.... آه.... الساحر الكبير... الحب الكبير... الشاعر الكبير... إن عيني لا تزالا موصولتين بالمطلق. متى أودع كل الأساطير التي تؤدي إلى التسول، متى أشفى من كل الخرافات التي تقود العضوية إلى عكس ما يُملي عليها بقاؤها، متى أتفادى الخطر العظيم الذي اسمه الاستقامة؟.

وفجأةً تنكرت ما قيل في الأدب الإنكليزي قديماً: إن كنت تبحث عن إله جديد فاذهب إلى الهايد بارك، فنهضت كأنما استفزني عقرب، ودنوت من زجاج المخزن، وعبرت أمامي أوراق الخريف والريح ونغمات الكنائس، ورددت نعم حان الأوان لأرى "ركن الخطباء"، لم أعد مرتعداً مذعوراً بل إنني اليوم أرى الحياة حالمة خفيفة رومانسية... إنها تبدو أشبه بأسطورة، ونظرت إلى النقود من جديد، ومضيت إلى محطة المترو، واخترت مقعداً

بحيث أتمكن من النظر من كافة نوافذ المقصورة، فأرى ما فعله الخريف بالأشجار والسماء، قبل أن نهبط تحت الأرض حيث يشعر المرء كأنه في قبر وأن حياة الناس تُهدر هدراً لولا الكتب التي في أيديهم.

وسألت أحدهم، فقال لي غادر المترو في "بوند ستريت" ثم اقطع الطريق مشياً إلى القنطرة المرمرية. وهكذا فعلت: إن أجمل ما في لندن عندما تكون وسط الضجيج ودخان السيارات واكتظاظ البيوت وفجأةً ينفتح أمامك سهب أخضر وحدائق وسواقي وأشجار لا نهاية لها، إن الهايد بارك هو أحد هذه المنتزهات.

لقد اكتشفت أن القنطرة المرمرية التي تنفتح على الهايد بارك تقع في نهاية شارع العرب ليس إلا، وما إن اجتزت عدة أنفاق حتى وجدت نفسي في ركن الخطباء.

آه... البحث عن إله مجهول... هكذا كان عنوان رواية شتاينبك الشهيرة، وهاهم الخطباء يقفون على سلالم وصناديق يتحلق حولهم الناس تحت أغصان الهايد بارك الخريفية... هنا ظل الإنجليز ينفثون ما في قلوبهم من تذمر وشكاوي بحرية جيلاً بعد جيل. حيث باستطاعة أي شخص يملك صندوقاً فارغاً أن يصعد عليه ليقول ما يشاء.... آه... وعلى الأرجح تلك هي "شجرة المصلحين" التي كان يجتمع عندها أعضاء "رابطة الإصلاحات" في غابر الأزمان.

ودنوت من أول الواعظين وكان زنجياً من زائير، على رأسه قبعة أوروبية، وقد غطت ثيابه شتى ضروب الأوسمة والخلاخيل والعقود التي تلف عنقه وتنحدر حتى بطنه، وبجانبه ثبت علماً أصفر وأسود

يحاذي قبعته، وكان معظم المتحلقين من السائحين المتأبطين آلات تصوير المشدوهين الضاحكين وعندما أصغيت بدا قائلاً:

-..... هذا ليس كل شيء أيها الموقرون.. هذا ليس أفظع الجرائم التي ارتكبها الرجال البيض... أنتم تذكرون كيف كان يُخطف السود في القرن الماضي من أسرهم ومن بحيراتهم وأنهارهم الرحبة، ثم تُقيد السلع البشرية بالسلاسل، ويشحنون في أقبية السفن حيث ينتشر الطاعون جراء اختلاط قيئهم ببرازهم وسلاسلهم ثم يباعون في المهجر ويعملون كعبيد بقية حياتهم. أنتم تذكرون هذا أم لا..؟ أنتم تذكرون هذا أم لا...؟

ردد بانفعال مشيراً إليهم بإصبعه.

فأجابه أحدهم ساخراً:

- نعم نذكر عندما اصطدنا قرود الغابات وسمحنا لهم بالدخول إلى حضارتنا محولين إياهم إلى بشر متمدنين.

فلم يرد عليه بل أكمل وهو يغلي:

- كانت نساؤنا تُغتصب أمام أعيننا، بل كنتم تعتدون حتى على صبياننا. لقد زرعنا نحن الحقول، ومن جهدنا دارت المصانع، لقد بنينا نحن أميركا ومع ذلك ظللنا في قعر المجتمع.

فرد:

- نعم... علومكم وبحوثكم هي التي بنت أميركا.... لقد مرت عليك ساعتان وأنت تلغو.

وتجاهله بشق النفس مكملاً:

- ولم يكن يتم تشغيلنا قبل أن نُخصى، أتعلمون لماذا؟ أتدرون لِمَ؟ ارتكبت بحقنا هذه الجريمة التاريخية؟ لأنهم يعلمون أننا نرضي نساءهم أكثر مما يفعلون... لأننا أكثر طاقة... لأننا أكثر حيوية... لأننا أكثر قوة....

ردد ذلك مكوراً قبضته نافخاً عضلة ساعده

فأجابه:

- لماذا تتحدث فقط عن الماضي؟... لقد كنا نحن أنفسنا نموت من الجوع في لندن نفسها. ألم تقرأ "أوليفر تويست" ألم تقرأ "البوساء"؟ لقد كنا نحن أنفسنا عبيداً، وكان ثمانون بالمائة من الروس أقناناً... إذا ظللنا ننبش عار أجدادنا سنصل إلى الإنسان القرد. لماذا لا تتحدث عن حقوق السود الآن؟ هل يوجد أسود لا يملك سيارة؟ هل يوجد عاطل عن العمل لا يتلقى إعانة شهرية؟ ألا يملك بعضهم أبنية ويخوتاً وخدماً من البيض؟ إن العنصرية الآخذة في الانحسار ستُمسي صفراً في المدى القريب.

وكما يشعر الملاكم عندما يتلقى في الحلبة الضربة القاضية هكذا أخذ يترنح، وبدا وجهه مَوتوراً غريباً صارخاً:

- كل ما قلته لا يبرر التاريخ الشنيع لفظائعكم.

- أنا لم أقل أنه يبرر، لقد كنا مُسيرين... لقد حدث ما حدث لأن قانون الطبيعة ببساطة هو البقاء للأقوى.

ورد بغضب أكبر:

- إذن لماذا تتهموننا بأننا نحن أبناء الغابات؟

وما إن همَّ بالإجابة حتى قاطعه بصيحة ضارية:

- اصمت.

واجتاحته نوبة غريبة من الهستريا فأخذ يحرك رأسه وخلاخيله وعنقه، وعقود الخرز تدور حول رقبته مزمجراً:

- اصمتوا أيها البيض الشحاذين!

ورفع علمه وعقود الخرز تصنع دوائر أكبر من قبعته وصاح:

- أنا معلمكم.... أنا سبارتاكوس!.

وانفجر السائحين من الضحك، وكانت كاميرات الفيديو تلتقط أدق حركاته. كان ميالاً لحماقة هستيرية وجدية معاً، إنه يعلم أن كل ما يقوله لا يجهله هؤلاء الأوروبيون، فكان يجذبهم بمرحه وعُقَده التي لا يسبر لها غور.. لقد بات يعرف هو نفسه أن الزمن تجاوز أفكاره، وأنه لا يأتي إلى هنا سوى بسبب حمى الظهور ولفت الأنظار وتوقف عن الدوران وقال:

- انظروا أيها السود إلى مجدكم، انظروا إلى دواخلكم... إلى طاقاتكم الكامنة.

ولم يكن هناك أي أسود، ولكن في البعيد البعيد كان أحدهم يعبر فوق الأعشاب، فنظر الجميع إليه مبتسمين، وكانت الغيوم فوق الأرض الخضراء عميقة مغرية مسافرة، عابرة فوق العراء الغامض للأشجار: وتساءلت تُرى ماذا يوجد وراء ضباب تلك الأغصان البعيدة؟ وعدت وحدقت به وبدا قائلاً:

- لستَ سوى من جنس خسيس أيها الأبيض، هل تظن أنني يمكن أن أعتبرك أخي؟

- حسناً اعتبرني أختك.

- لا.. لا، مكانكم الطبيعي أيها البيض بين الحيوانات.

- المسيح كان أبيضاً.

- هذه الكذبة التاريخية الضخمة ستوصلكم أيها البيض إلى الجحيم، إن المسيح كان أسود: انظروا.

وأخرج من جيبه صورة ملونة كبيرة ونشرها أمام الجميع

- هذا هو المسيح.... هذا هو أيها البيض الشحاذون.

وذهل الجميع، كانت الصورة تمثل رجلاً أسود مجلبباً كملك يتكىء على عكاز.

فأجابه أحدهم:

- حسناً هل الملائكة سود أيضاً؟ أخرج لنا صورة الملائكة.

وطارت قهقهة صافية من شفتي فتاة شقراء أميركية تمسك بكاميرا. فتجهم قائلاً:

- اضحكي... اضحكي رغم عيوبك الثلاث.

- أية عيوب؟

- أولاً أنت بيضاء، ثانياً أنت امرأة وثالثاً أنت أميركية.

- كيف عرفت أنني أميركية؟

- كل الاميركيات يبدو على وجوههن البلاهة.

ودخل الحلقة اثنان من المقاطعين، وهؤلاء اختصاصيون متمرسون يأتون كل أحد، فقط ليمزحوا ويقاطعوا الخطيب مهما كان كلامه وابتدأ الأول:

- هل غسلتَ وجهك هذا الصباح؟

ولفطرته أجاب:

- نعم

- ومع ذلك بقيت أسوداً... لا تغتسل كثيراً لن تتغير

وقال الآخر:

- إن غسيل الزنجي ليس إلا هدراً للصابون

فقال الزنجي:

- كل الناس يكرهون الإنكليز حتى الإنكليز أتعلمون لماذا؟ أتعلمون لماذا الإنكليز يكرهون الإنكليز؟... لأنهم إنكليز.

ولم يضحك أحد، ولكن أحد المقاطعين رفع يده بهدوء وتهذيب:

- تفضل أسأل.

فقال:

- افرض أن شخصاً أسود له مؤخرة بيضاء هل يعد أبيض؟

وضج الواقفون بالضحك، بينما جمدت تعابير الزنجي وغشى وجهه سَكينة شمعية وقال الآخر:

- حسناً كيف لي أن أصبح اسود هل علي أن أتعمد؟

فتوقفت حدقتا عينيه وبدا كأنما انقطعت عنه الكهرباء.

- هل أستطيع الزواج من سوداء إذا كنت أبيضاً؟

ولكنه استحال إلى صنم، مجرد صنم أريقت عليه الكوكا كولا، وُبهت المتحلقون في بادىء الأمر، وسرعان ما اكتشفوا أنها تمثيلية جديدة، فأخذ المقاطعون يلمسون أوسمته وخلاخيله، بينما انحدر سنجاب من شجرة مجاورة لافتاً الأنظار. وسئم بعضهم الانتظار،

وتفرقوا شيئاً بعد شيء، وكنت آخر المغادرين، ثم نظرت ورائي فلم يكن هناك سوى علم يخفق وتمثال من الشوكولا.

وتقدمتُ من الواعظ التالي، وكان بوذياً نحيلاً من الصين، وقد بدا بملابس متواضعة خفيف الحركات، ذا نظرات حادة، فتوقفت وأصغيت:

-..... لقد هجر بوذا أباه ملك الهملايا وزوجته وابنه الرضيع، وضرب في الصحراء زاهداً، في عربة نحو الفقر، وعلى الطريق تبدى له "مارا" روح الشر وأغواه بمُلك عريض ولكن بوذا أبى عليه غوايته، وأخضع نفسه ست سنوات لأشق أنواع التقشف، عاش فيها على الحبوب والكلأ، ومضى عليه وقت اقتاتَ بالروث. وانتهى به التدرج أن جعل طعامه حبة من الأرز كل يوم، ولبس ثياباً من الوبر، وانتزع شعر رأسه ولحيته لينزل بنفسه العذاب، وكان ينفق الساعات واقفاً أو راقداً على الشوك، ويدع التراب والقذر يتجمع على جسده، حتى أشبه في منظره شجرة عجوزاً. ثم يرتاد الأمكنة التي ُتلقى فيها جثث الموتى مكشوفة ليأكلها الطير والوحش فينام بين هذه الجثث العفنة. فلأجل من فعل كل ذلك يا إخواني؟

ولم يجب أحد.

- لأجلكم أنتم.... لأجل البشر. لقد ضمر جسده وذبل جلد رأسه، وبرزت عظام فقراته.. ولكننا اليوم ومن تطهر روح ذلك المستنير نملك مفهوماً شاملاً للنيرفانا.

وظل المتحلقون لامبالين، والبرد يلفح أنوفهم، ونظرت ثانية إلى السهل الرحب وتسائلت من جديد تُرى ماذا تُخفي تلك الأشجار البعيدة ورائها؟ وشددت الوشاح حول أذني وأنفي وأنصتُ:

- الألم يا أصدقائي أرجح كفة من اللذة في الحياة الإنسانية، وإذن فخير للإنسان ألا يولد، إن ما سفح الناس من دموع لأغزر مما تحتوي محيطات العالم، وسبب ذلك كله الشهوة التي تؤدي إلى الولادة من جديد. فلوقْف الألم يجب أن نجتث الشهوة من أصولها. والسبيل إلى ذلك عبر الانقطاع والتسامي والتأمل والدراسة التي تؤدي إلى سلامة النية والقول والفعل والجهد والعيش والتركيز. فننعتق ونصل إلى النيرفانا التي هي حالة من السعادة يبلغها الإنسان باقتلاعه كل شهواته الجسدية اقتلاعاً تاماً.

فقال أحدهم:

- إذا كان خير للإنسان ألاّ يولد، فما ذلك إلا دعوة للإنتحار.

- الإنتحار لا خير فيه لأن روح المنتحر بسبب ما يشوبها من أدران ستعود فتولد من جديد في أدوار أخرى من التقمص، حتى يتسنى لها نسيان نفسها نسياناً تاماً.

- هل تملك دليلاً عقلياً على هذا التقمص؟

- المستنير قال ذلك.

- أي مستنير؟

- بوذا.

- وأي برهان علمي، يملك على ذلك؟

- يجب أن تؤمن ما دام هو الذي نطق به.

وبدا وجه السائل مقموعاً بعد هذا الرد، فصمت. وظللتُ أشعر بالبرد فحشرت نفسي بين المعاطف ونظرت إليه من جديد:

- إنني وباسم مليار ونصف بوذي في العالم أدعوكم للذهاب إلى معبد بوذا قرب محطة "ويمبلدون" حيث تجدون وصاياه الخمسة منقوشة على لوحة الجدار: لايقتلنَّ أحد كائناً حياً، لا يأخذن أحد ما لم يعطه، لا يقيمنَّ أحد على دنس....

فقاطعه أحدهم:

- تمهل هذه نفسها وصايا موسى العشر: لا تقتل، ولا تسرق، لا تزن.

- وماذا في ذلك؟

- قد يكون ثمة يهودي أخبره بهم.

فلم يأبه به وأكمل يعد على أصابعه:

- رابعاً لا يشربن أحد مسكراً

فرد:

- وهذه أيضاً وصية محمدية.

- وخامساً لا يقولن أحد كذباً.

و أُغلقت قبضته باكتمال الإصبع الخامس، وبرز شرطي على حصان وتوقف كفارس من العصور السحيقة، وعيناه تراقبان تحت خوذة سوداء عالية. ثم تابع سيره في هدوء وقد تلفع برداء يقيه من الشتاء. وأكمل البوذي:

- لقد زعم بوذا الحكمة، ولكنه لم يدّعِ الوحي كغيره، وما قال قط أن إلهاً يتكلم بلسانه، ولم يهتم أبداً بالطقوس ولا بشعائر العبادة ولا بالكلام الفارغ عن روح مزعومة داخل معدة الإنسان تصعد إلى السماء، وإنما.....

فقاطعه الأول:

- إذا لم يكن ثمة روح فما الذي يتقمص أجساداً في ولادات متتالية؟ ما هو الشيء الذي يتناسخ؟

ولبرهة وجم الخطيب متلكئاً في الإجابة، كنت أعلم أن هذه أضعف الحلقات في فلسفة بوذا وأكد لي ذلك رد الفعل الحانق للخطيب:

- لا تقاطعونني أرجوكم.... دعوني أكمل... واسألونني لاحقاً...

وتنهد كأنما يكبت الغضب متابعاً:

- لقد ركز بوذا اهتمامه إذن على سلوك الإنسان، على إخماد شهواته ليتسنى له الوصول إلى السكينة التي لا يشوبها ألم "النيرفانا" عبر السيطرة على النفس والبحث عن الحقيقة والنشاط والهدوء والغبطة والتركيز وعلو النفس.

ولكن أحدهم ترك الحشد ثم وقف بجانبه وهو يغلي وقال:

- لا يصدقْنَّ أحد كلامه، إن أي قمع الشهوات لا يؤدي إلا إلى الشذوذ الجنسي. إن الغريزة أشبه بنهر متدفق أي حاجز تضعه أمامه سيؤدي إلى انحراف المياه إلى مسارب أخرى شاذة.

وعاد إلى مكانه مكفهراً وانضم إلى الباقين.

فصفق له الخطيب ساخراً:

- أحسنت، إذن أنت لم تفهم شيئاً مما قلته منذ ساعتين، ولعل الآخرين أدركوا ذلك، وكان عليك كما يقول بوذا أن تتغلب على الغضب بالشفقة، وأن تزيل الشر بالخير، إن الكراهية لا تزول بالكراهية، كما يعلمنا المستنير، الكراهية تزول بالحب. ويؤدي كل هذا إلى أن نستبدل محبتنا لأنفسنا بمحبة الآخرين.

فرد آخر:

- ليس هذا إلا مأخوذاً من المسيحية.

- لماذا لم يخطر لك العكس؟ من الذي أتى قبلاً المسيح أم بوذا؟ عندما اختتم بوذا موعظته ذات يوم سمعه العالم كله واهتز من أقصاه إلى أقصاه.

ردد ذلك مهتاجاً مما أضحك المتحلقين كلهم.

- هل هذه معجزة؟

- أجل.

- هل لبوذا معجزات؟

- نعم..... لقد هجم عليه فيل مفترس ذات يوم فغلبه بوذا بالحب.

فتتابع ضحكهم.

- وكيف نصدق ذلك؟

- عليك أن تؤمن.

- وماذا أيضاً؟

- لقد قطع بوذا نهر الكانج بلمحة بصر بفعل السحر.... أيضاً يجب أن تؤمن بهذا!

وكان يتابع منفعلاً وسط ضحك الآخرين.

- وماذا أيضاً؟

- وأسقط من يده شظية من الخشب كان يزيل بها ما بين أسنانه من فضلات الطعام فنبتت شجرة!

- يا إلهي.. وماذا أيضاً؟

واحتقنت مثانتي بالبول، فانسللت من الحشد وقصدت دورة مياه قريبة، وما إن بدأت أبول حتى دخل أحدهم على دراجته وتجول في المرحاض ثم ترجل عند أحد الأبواب ودخل. وعدت إلى الخطيب الثالث، ولم أفهم أي اتجاه كان ينحو وعن أية فكرة يدافع، وبدا وكأنه مغرم بالجنس أو بالنساء، وكان ايرلندياً أشقر وأنصتُّ:

-.... المرأة هي التي توحي لنا بالحب، وبما أن الحب أهم شيء في حياتنا علينا أن نحمد النساء كل لحظة، إنني عندما تحبني امرأة أعيش أصفى لحظات عمري. هلاَّ أحبتني إحداكن.

وتنقل بصره بين الفتيات المذهولات.

- انظرن أيتها النساء ما أجمل جسدي.

وخلع سترته وبدا عارياً في نصفه الأعلى.

- إنني جميل جداً، أنا أحياناً أنظر إلى المرآة وأغار من جمالي... قد تتساءلن عن سر جاذبيتي، أتعلمون ما السر؟!!... المساج هو السر هل تحبين المساج يا صغيرتي؟

وبدا مخاطباً فتاة دانماركية، تتأبط كاميرا، فأجابت برقة:

- نعم.

- حسناً تعالي هذا عنواني... إنني اليوم أفتش عن امرأة. وأعطاها كرتاً.

وقال رجل بجانبها:

- أنا أعلم أن كثيراً من الخطباء لا يأتون إلى هنا سوى من أجل امرأة.

فقال الإيرلندي:

- هل هذا زوجكِ؟

- هذا ليس زوجي... هذا مشكلتي.

وضحك الآخرون كما لم يفعلوا من قبل.

- إذن لقد أحببتني أنا؟

- أجل.

وظل الزوج مبتسماً ودوداً ينتظر بقية الموعظة.

ومرت شرطيتان أثداؤهما نافرة، فقال:

- انظروا إلى الشرطة الإنكليزية كم هي شهية.

فابتسمتا وتابعتا طريقهن.

وتبعهما شرطي غاضب، فقال الخطيب:

- أعزائي اتبعوا يسوع المسيح.

وضحك الحاضرون من جديد.

- حسناً سنتحدث اليوم عن الجنس: انظروا إلى الصحف الإنكليزية، كيف تظهر على الصفحة الأولى صورة امرأة عارية، هل هذا دليل أن الجنس مهم في نظر الناس أم لا؟ بالطبع نعم فلماذا نهرب من الحقيقة؟. إنهم الآن يعلمون المراهقين والمراهقات في المدارس كيفية ممارسة

الجنس، ويعلمونهم أيضاً اللواط والسحاق، طبعاً حتى يتسنى لهم تفادي ذلك فلا يقعون كالعميان في شراك الشذوذ....

فقاطعه أحدهم:

- إلى متى ستظل عارياً؟

- حسناً وكيف لي أن أعلمكم الجنس الحقيقي إذن؟ هل تعلمون كيف أنا أضاجع؟ انظروا... أنا لا أجامع المرأة بتكاسل أبداً، أنا أمسك المرأة من خصرها وأرميها على السرير ثم أضاجعها هكذا... هكذا.. هكذا.

وبدت النساء ضاحكات شغوفات بتمثيله وازدادت الحلقة اتساعاً، ولكن زنجياً قال له:

- انظر كم أنت شنيع.... يا إلهي ما الذي تفعله؟ ألا تخشى الله؟

- المسيحية في اوروبا أصبحت في المتحف... من أين أنت؟

- من نيجيريا

- آه أنتم بحاجة إلى إله كعزاء على الجحيم الذي تعيشونه في البلدان المتخلفة.

- من أين أتيت للدنيا أنت إذن؟

- من أهلي.

- كيف؟

- لقد مارس أبي وأمي الجنس بدون كبود.

وعلا الضحك من جديد.

ووجم الزنجي، وخرج من الحلقة وابتعد، وسألته امرأة كندية:

- هل أنت متزوج؟

- نعم وإنني أعبد امرأتي ولا أبدلها ولا أتركها لحظة واحدة، ولا يوجد في لندن كلها رجل يحب امرأته على هذا النحو: امرأتي اسمها الحرية، ولي منها ولدان أحدهما إسمه الحب والآخر الضحك.

وصفق له الحاضرين منفعلين ضاحكين، وغادرت الحلقة فصاح بي:

- هل اكتفيت؟

ولم أجبه، فأخرج واقياً ذكرياً من جيبه يتسع لعضو حمار ونشره ثم قال:

- أنني شخصياً أستعمل هذا القياس.

وضحكن النساء حتى الإغماء، ولم أعد أسمع كلماته فقد بدأَتْ تدنو منا كوكبة غريبة من الهندوس مرتلين مغنين صاخبين، طائفين ركن الخطباء من أوله إلى آخره بملابس هندية مختلفة عجيبة الطراز والألوان، فتبعتهم مصغياً إلى ذلك الترنيم المرافق لهرولة أشبه بالرقص على إيقاع دف في يد أحدهم:

هاري كريشنا

هاري كريشنا

هاري هاري

هاري راما

هاري راما

هاري راما

راما راما

هاري هاري

سلاماً يا كريشنا، سلاماً سلاماً، سلاماً يا راما سلاماً سلاماً.

كان هذا المزمور الذي يطوفون به رجالاً ونساءً ليس الهايد بارك فقط، بل لندن كلها، ينثر على تعابيرهم غبطة غريبة، ثم توقفوا بعد أن تبعهم عدد غفير من الناس، وبدا على وجوه معظمهم سرور صوفي غريب، وميزتُ رجلاً وامرأة إنكليزية بينهم وقد اعتنقا الهندوسية، وبرز صوت الواعظ متحدثاً، فقال المترجم بالإنكليزية:

- إن الراهب يتحدث إليكم بالسنسكريتية، وكلمة سنسكريتية تعني المقدسة أو الكاملة أو الخالصة، وهو يدعوكم باسم مليار هندوسي لزيارة معبد راما كريشنا[1] في سوهو.

ثم رمى بعشرات البطاقات التي تحوي العنوان وعاد الراهب للوعظ، فترجم عنه:

- يقول راما كريشنا: إن كل كتابات القديسين وآرائهم قد تلوثت مثلما يحصل للطعام عندما يلامسه لسان، ولكن وحده براهمان لم يتلوث. وأنا أقول لكم - من أجل خلاصكم - انضموا يا أحبائي إلى براهمان لتولدوا من جديد.

إن براهمان أرشق من العقل رغم أنه لا يتحرك أبداً، يرتحل بعيداً رغم أنه يقبع ساكناً، تراه في كل مكان مع أنه مستلقٍ في مكانه: براهمان هو الوجود والمعرفة والغبطة الصرفة.

1- راما كريشنا: نبي الهند.

كان أتباعه ومريدوه المتجمعون حوله منصتين هم أيضاً، ولكن بخشوع أكثر، وقد ميز وجوههم حبور يبعث على الدهشة.

- قد تقولون هاهم الهنود يملؤون لندن ولكن أبداً لا يفكرون بالدين. أبداً يا أعزائي إن تعاليم الفيدا التي ترتكز عليها الهندوسية غير معنية فقط بتطلع الإنسان للهدف النهائي الذي يوصف بأنه حرية وسلام وغبطة وخلود، وإنما باندفاعه الفوري باتجاه اللذات المادية هنا على الأرض أيضاً، رغم أن الفيدا تحتوي حقائق أزلية تتعلق بطبيعة الحقيقة النهائية والخلق والروح ومصيرها، فإذا وضعت هندوسياً على المحك تجده متديناً رغم قشرة التربية والنشأة الدنيوية.

واستمر الراهب بوعظ طويل، وكان الحشد لا ينفك يتزايد حتى لم يعد بمقدور آخر القادمين أن يرى شيئاً. ولكن ولسوء حظ الراهب اخترق الجمع اثنان من المقاطعين حتى وصلا إلى أوله وكان المترجم يقول:

- إنكم الآن تصورونني وتلتقطون عباراتي بكاميراتكم، وسوف تأخذونها إلى بلادكم وتدرسونها وتحبونها، وهكذا عاشت الفيدا آلاف السنين لأنها تفترض التعامل اللطيف ليس فقط مع الإنسان والآلهة وإنما مع الكائنات الأدنى كالدواب والطيور و....

ولكن أحد المقاطعين قال:

- أية آلهة؟

فنقل المترجم السؤال ثم ترجم الرد:

- الآلهة الفيدية يا أحبائي هي "براجاباتي" و "فارونا" و "ياما" و "أندرا" وهي تجليات قوة براهمان.

فقال المقاطع:

- أندرا!؟... أهو الإله الذي كان يأكل العجول مئات مئات ويشرب الخمر بحيرات بحيرات؟

- أجل هذا هو. وهو الذي يسيطر على المطر والرعد والبرق.

- وكيف سيدخل ذلك في "نافوخي".

وأشار بإصبعه إلى قمة رأسه فضحك الجمع، بينما تمالك الراهب نفسه قائلاً:

- عليك ببساطة أن تؤمن.

وقال المقاطع الثاني:

وماذا عن عبادة البقرة؟

- نحن لا نعبد البقرة أنما نقدسها فقط لأن الإنسان عندما يموت يولد من جديد بقرة.

- حسناً أرنا صيغة رياضية دقيقة تبرهن ذلك.

- عليك ببساطة أن تؤمن.

واخترق مُقاطع ثالث الحشد ووصل إلى الفسحة محدقاً بالجمع الهندوسي الغريب، لافتاً الأنظار، قائلاً بصورة مسرحية:

- ماذا هل أنتم شياطين؟... إن أشكالكم تشبه الشياطين.

وضحك المتحلقون كللهم. إن المقاطعين يعلمون أن الناس يميلون إلى المرح أكثر من الأفكار، وهم يعزفون على هذا الوتر، بعد أن تمرغوا في أفكار "ركن الخطباء" كله.

وسأل الراهب مترجمه فهمس في أذنه عما قيل، فظل متماسكاً قائلاً برحابة صدر:

- اسمعوا لا يمكن أن ترفضوا ما أقوله لمجرد أنكم تسمعون به لأول مرة.

- وأنت لم تجد سوى لندن عاصمة العلوم لتتشدق بمثل هذه الخرافات.

- أية خرافات؟

- ألم يجز في الفيدية القديمة تعدد الأزواج.

- نعم، وقد تزوجت "ندرو بادي" خمسة أخوة دفعة واحدة.

فتقيؤوا ضحكاً متواصلاً بصوت واحد، مما دعا الطائفة إلى العودة إلى الإنشاد والعزف على الدف غير مكترثين:

سلاماً يا كريشنا

سلاماً سلاماً

سلاماً يا راما

سلاماً سلاماً

وانطلقوا فوق خضرة الهايد بارك، وقد بدو كالشياطين فعلاً، ولكن السعادة تغمر وجوههم.

وسرتُ وحيداً لبرهة، ثم شربت شاياً لأُدفيء ضلوعي، وتناهى إلي نداء غريب:

- تعالوا إليه أيها المتعبون.... تعالوا إليه أيها المتعبون... تعالوا إليه أيها المتعبون.....

فرنوت باتجاه الصوت الواهن البعيد، وإذ بمبشرة أربعينية قد اعتلت صندوقين وطفقت تُلوح للمارين بيدها وتنادي، وقد أمسكَتْ أنجيلاً في اليد الأخرى، فدنوت منها وكنت أول الواقفين فقالت لي:

- رأيتك تتجول من مكان لآخر، وتقف عند كل زاوية. قال يسوع احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من الداخل ذئاب خاطفة.

فقلت لها:

- فقط أحببت الإطلاع.

- قال المسيح إذا لم تترك كل شيء وتحمل صليبك وتتبعني فأنت لا تستحقني.

فقلت خافض الرأس:

- أجل، أجل.

وعادت تنادي:

- تعالوا إليه أيها المتعبون وهو يريحكم... تعالوا إلى يسوع أيها المتعبون...

وما إن أنهيت كأس الشاي حتى كان قد تحلق حولها عشرات، ففتحَتْ الإنجيل وقرأَتْ نداء يسوع:

- "سمعتم أنه قيل العين بالعين والسن بالسن أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً، ومن سخَّرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين. من سألك فاعطه ومن أراد أن

يقترض منك فلا ترده. سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك، أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداؤكم، باركوا لاعينكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلُّوا لأجل الذين يسيؤون إليكم ويطردونكم. لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات. فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين. لأنه إذا أحببتم الذين يحبونكم فأي أجر لكم أليس العشارون أيضاً يفعلون ذلك. وإن سلمتم على إخوتكم فقط فأي فضل تصنعون. أليس العشارون أيضاً يفعلون ذلك. فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل.

وأطبقَتْ الكتاب المقدس قائلةً:

- باختصار يا أحبائي، وصية يسوع الكبرى هي: أحبوا بعضكم بعضاً كما أنا أحببتكم. إن الشعوب التي تحب بعضها أكثر تتعاون أكثر فتتطور أكثر. إن المحبة هي التي ستنقذ الأرض في النهاية، إنها خلاصنا الأخير.

قولوا لي من مثل حبيبي يسوع لآخذه بين ذراعي قولوا لي ماذا بقي لي بعد موت هذا الحبيب؟ هه..؟ ماذا بقي؟

ولم يحر أحداً جواباً.

- لقد بقي لي الحب... لقد ظللت أقرأ الإنجيل حتى تساقطت دموعي عليه فماذا خلَّفَ بين يدي؟ لقد خلَّفَ لي الحب.

فقال أحدهم:

- ولكن أية كنيسة نتبع وهي مقسومة ثمانمائة قسم.

فقالت:

- اتبعوا يسوع المسيح لأنه هو الذي شفى الميت ومشى على الماء وأخرج الشياطين من المريض.

- الشياطين!؟... أية شياطين؟

- لقد كان يسكن بين القبور رجل في نفسه ألفا شيطان، صائحاً ليل نهار، ضارباً نفسه بالحجارة، لم يقدر أحد أن يقيده. فلما رأى يسوع قال له استحلفك بالله لا تعذبني. وكان هناك عند الجبال ألفا خنزير ترعى، فقالت الشياطين ليسوع أخرجنا من المجنون ودعنا ندخل في الخنازير ففعل، فلما شعرت الخنازير بالشياطين داخلها اندفعت من الجرف نحو البحر وانتحرت وماتت.

نظر المتحلقون وقد علت الدهشة تعابيرهم بعضهم إلى بعض مستفهمين ثم عادوا ونظروا إليها وقد لفَتتْ انتباهها سحناتهم المندهشة فقالت:

- ما بكم؟ إنها معجزة من الله، عليكم فقط أن تؤمنوا.

فقال أحدهم:

- حسناً... ولكن ألا ترين أن هذه المعجزة ركيكة قليلاً؟ وكأنما كُتبت عندما كان عقل الإنسان لا يزال طفلاً.

- لا إنها قوية، وقد سردتها تماماً كما هي في انجيلِ مُرقس.

- حسناً ماهي هذه الشياطين؟

- الشياطين هي الأرواح النجسة حسب الإنجيل نفسه.

- لا بأس.. كيف نستوعب وجود هذه الأرواح.

- عليك أن تؤمن.

وفجأة سمعت صوت الأذان قادماً من مكان بعيد غريب، فتركت الحشد وتبعت مصدر الصوت الذي كان يصل إلى أذني رقيقاً عذباً: "الله أكبر... الله أكبر". فلمحت شيخاً قد رفع الصلاة، في الأربعين من عمره وقد وقف على كرسي حديدي واطىء. ففذذتُ السير والآيات تتدفق إلى أذنيَّ ممزوجة بكثير من الحنين:

- الم يجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً فهدى، فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر.

وعندما وصلت بدت طلعة ذلك الداعية تحت الغيوم رائعة حقاً، بذقنه السوداء وقبعته الإسلامية، كنتَ تنظر إلى وجهه المتسامح بين الأرض والسماء فتحسبهما شيئاً واحداً من الغبطة والسحر، يُعبران عن مشهد واحد: "رونق الكون". وكان يخفق بجانبه علم أخضر كُتب عليه "لا إله إلا الله، محمد رسول الله". وكان يهتف بالإنكليزية:

- لقد ولد محمد "ص" في أسرة فقيرة، في إقليم ثلاثة أرباعه صحراء مجدبة قليلة السكان، أهلها من قبائل البدو الرحل. ولم يكن أحد في ذلك الوقت يحلم أنه لن يمضي قرن من الزمان حتى يكون أولئك البدو قد فتحوا نصف أملاك الدولة البيزنطية، في آسيا وبلاد الفرس ومصر وشمالي إفريقية وساروا في طريقهم إلى إسبانيا. أليس هذا من أعجب الظواهر الاجتماعية في العصور الوسطى؟ أليس هذا دليلاً كافياً أيها الأوربيون الوقورون على أن محمد "ص" نبي؟

فرفع أحدهم يده فلم يتح له مجالاً بل تابع:

- لم يرث محمد "ص" سوى خمسة جمال وقطيعاً من الماعز وبيتاً ومع هذا فإن حضارة كاملة بُعثت من روحه النقية. لقد رفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله.

فسأل أحدهم:

- لماذا إذن.....؟

فقاطعه متجاهلاً مواصلاً:

- كانت بلاد العرب لما بدأ الدعوة صحراء جدباء تسكنها قبائل متفرقة من عبدة الأوثان، وكانت عند وفاته أمة موحدة متماسكة كُبح فيها جماح التعصب والخرافات....

فقاطعه آخر:

- لماذا لا تزال المسلمات إذن يضعن الحجاب؟

فظل مندفعاً وكأنه لم يسمع شيئاً:

- وكانت حياة النبي غاية في البساطة، فقد كان مسكنه من لِبن، سقفه من جريد النخل، فراشه ليس أكثر من حشية تُفرش على الأرض ووسادة. وكان كثيراً ما يُشاهد وهو يُرقع ثوبه، وينفخ النار، ويكنس الأرض، ويحلب عنزة البيت في فنائه، ويبتاع الطعام من السوق الذي لم يكن سوى التمر وخبز الشعير.....

فصرخ به أحدهم مقاطعاً:

- هيه.... أنتَ في الهايد بارك.... أجب عن أسئلتنا.... أنت على منبر ديموقراطي.

فأجابه بحدة:

- ماذا تريد؟

- ثمة من يسألك لماذا لا تزال المسلمات يرتدين الحجاب؟

- لقد طلب الرسول من أتباعه ألا يكلموا زوجاته إلا من وراء الحجاب. وفيما عدا هذا فإن نساء المسلمين كن يخرجن من البيوت بكامل حريتهن، غير محجبات في أيام النبي وفي القرن الأول بعد الهجرة.

- لا شر عليك، لماذا تتفادى الأسئلة إذن؟ استمع عندي سؤال آخر: هل وعد النبي الشهداء باثني وسبعين حورية في الجنة؟

- أجل، لن تُنقص الأيام ولا الأعمال من جمال أجسامهن. ومقر الجنة في السماء السابعة الفلكية وما بعدها، تجري فيها أنهار عسل ولبن، ويلبس فيها الصالحون ثياباً من سندس ويتكئون على الأرائك، ويطوف عليهم وِلدان مخلدون.

وكانت إمرأة شقراء فنلندية رافعة يدها بهدوء:

- ماذا يقول القرآن، لماذا يعيش الإنسان؟

فأجابها:

- يقول القرآن: "وما خلقنا الجن والإنس إلا ليعبدون".

فقال أحدهم:

- الجن!؟... أي جن؟

فقال الشيخ:

- أجل.... الجن والعفاريت: العالم غير المنظور

فذهل الواقفون وبدت الدهشة على الأفواه.

- أي دليل تملك على أن العفاريت موجودون؟

- قال الله في كتابه العزيز: سورة النمل الآية "39":

قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ.

- أقصد أي دليل عقلي علماني تملك؟

- يجب أن تؤمن.

- حسناً ما هي ماهية هذه العفاريت؟

العفاريت كالبشر ولكنها غير مرئية، وهناك عفاريت مسلمون وآخرون مسيحيون، وثمة عفاريت متزوجة وأخرى مطلقة إلخ.

- سألتك عن ماهيتها؟ مما هي مركبة؟

- العفاريت مصنوعة من نار حسب القرآن.

- وكيف تتزوج إذن؟

- يجب أن تؤمن.

بدت الحيرة طويلاً على الوجوه. واحتقنَتْ مثانتي ثانية بالبول، فقصدت المرحاض، وعندما عدت ارتطمت أنظاري من جديد بمشهد الأشجار العارية والخريفية عند النهايات. وعدت ومررت بقرب المبشرة وكانت تقول: أنا تلك العذراء التي ظلت تقرأ الإنجيل حتى ذرفت عيناها الدمع، فأين أجد حبيباً لي مثل يسوع؟ وماذا بقي لي بعد

موته؟ قولوا لي أين لي بحبيب كيسوع أضمه بذراعي؟ وتجاوزتُها إلى حلقة غريبة، فقد كان الواعظ لا يقف على شيء، وكان حوله بضعة أفراد ليس أكثر، أحدهم كان مقاطعاً متمرساً عنيداً، ولم يكن الخطيب إلا شيوعياً إنكليزياً أكل عليه الدهر وشرب، كان قديماً يبشر بالماركسية. أما اليوم فإنه يبدأ الخطبة عن الشيوعية ثم ينتهي بالتنويم المغناطيسي. ووجدته يقول:

- إذن كما قلت لكم يا أصحابي لقد أصبحت شيوعياً في العشرين من عمري....

فقال المقاطع:

- لماذا لم تصبح لوطياً مثلاً بدلاً من ذلك.

ابتسم الواقفون بينما أكمل بلطف:

- وابنتي الآن أيضاً شيوعية، وهي في العشرين من العمر... وأنا فخور بها.

- ماذا قلت؟... هل هي سحاقية؟

- لقد أعطيتها خبرتي في هذا العالم الظالم... ولحسن الحظ أن هذه الوردة الآن تبذل كل ما في وسعها لفضح شرور الرأسمالية.

فأخذ المقاطع يتصنع نفض الغبار عن بدلة الشيوعي مردداً:

- إن غبار الزمن يعلوك.

فنظر إلى الباقين مخاطباً:

- صحيح أن الشيوعية خمدت نارها، ولكن هل تستطيع الأرض التخلص من فكرة العدالة؟ لقد كان لينين صادقاً فلم يقل عن نفسه أنه

نبي، ولو أنه فعل لما زالت الشيوعية بألف عام. لو أن لينين قال أنه هو المخلص الذي وعد المسيح تلاميذه بمجيئه إلى الأرض، وتربت الأجيال معتنقة هذا الإيمان منذ طفولتها لما زالت الشيوعية من روسيا بخمسة آلاف عام، ولكنه توخى الحقيقة فجعلَتْ منه الرعونة البشرية نِسياً منسيا.

فقال له أحدهم وكان روسياً:

- أية حقيقة؟

- لقد هاجم البلاشفة قصر الشتاء وأطاحوا بالعالم القديم، وأرسى لينين لأول مرة في التاريخ دعائم دولة قائمة على العدالة، لا غني فيها ولا فقير، وانتصر ستالين على الغرب في الحرب العالمية الثانية، وأطلق بريجينيف المركبات إلى القمر. وهكذا نهضت أعظم إنسانية منذ بدء العصور. فقام الخائن غورباتشوف وكما فعل يهوذا بالمسيح وحطم كل شيء.

فأجابه الروسي:

- إذن ما هي هذه الدولة التي مصيرها يحدده فرد واحد، عن أية ديكتاتورية عاتية تدافع؟

- أُعيد: لقد بنى البلاشفة مفهوم الدولة على العدالة....

- لا تعيد ولا تكرر، العدالة لم تكن في يوم من الأيام في الإتحاد السوفييتي. سيارة "الروز رايز" التي يملكها لينين لا تزال في المتحف في الساحة الحمراء. وستالين أَفقَرَ الأوكرانيين لدرجة أنهم طبخوا أطفالهم في قدور. وبريجينيف ملأ سيبيريا بالمعتقلات. أما يلتسين

وحاشيته وهي كلها من الشيوعيين القدامى فقد نهبوا 150 مليار دولار من مؤسسات الدولة وأودعوها في مصارف الغرب. في الوقت الذي اكتشف فيه الشعب أن كل مصانعه وشركاته صفر لا يمكن لسلع أي منها أن تنافس الغرب....

- البشر هم الفاسدون ما ذنب الشيوعية هنا....

- الخطأ في الماركسية اللينينية نفسها، أتعلم أين مكمن الخطأ الكبير في النظرية الماركسية؟ أتعلم لماذا أفلست المصانع السوفيتية كلها؟

- لا... لا أعرف..... علمني.

- لأنه لم يكن فيها مبدع واحد، لأن الجميع كانوا يتقاضون الأجرة نفسها، لأن الاشتراكية بترت قانون الغاب "البقاء للأصلح" بتراً، لأن الحاجة أم الاختراع، لأن طموح العامل أو المهندس أو الموظف بأن يصبح غنياً هو الذي يدفعه للإبداع، فيطور مصنعه عاماً بعد عام هذا التفكير بالربح بالذات. أما التأميم الذي جعل أياً من المدير أو العامل أو المهندس لا يهمه الإنتاج طالما أن المرتب لن يزداد فنشر الكسل الذهني، وبيعت السلع التي لم يكن يستوردها أحد في العالم إجبارياً للمواطن السوفيتي الذي لم يجد غيرها في السوق. إن اقتلاع أظافر الذئب وأنيابه سيجعله ينزوي تحت شجرة مسكيناً جائعاً غير قادر على إطعام نفسه، وهذا ما حصل لروسيا. أن غرائز الغاب يمكن تلطيفها عند الإنسان تدريجياً مع مرور آلاف السنين أما بترها فقد جعل روسيا ذات يوم عار أوروبا....

فقال المقاطع:

- عجباً. لم أعد أعرف من الخطيب هنا؟

فقلت:

- على كل حال إن التجربة الشيوعية كانت محمودة، وقد أفادت الأرض، كما فعلت كومونة باريس، إن العالم الآن أصبح يعي ما معنى العدالة الإجبارية التي تذهب بحسنات الإنسان وسيئاته معاً.

ولم يأبه بكلامي أحد، وعاد الشيوعي ليقول:

- لقد قال لينين في كتاب "ما العمل": لا أحد يستطيع أن يشوه سمعة الاشتراكية إذا هي لم تشوه سمعتها بنفسها....

فلم يدعه الروسي الحانق يكمل:

- انظر لم يكترث أحد من زوال الماركسية في روسيا، فبغض النظر عن حفنة شيوعيين فإن الشعب الروسي بكتلته لا يتمنى عودة الدكتاتورية اللينينية، إنك كباقي الشيوعيين للأسف تُظهر ضعف واضح في الأنتربولوجيا[1]. إن الإنسان لا يتطور إلا بسبب الصراع وقد قال داروين: إن أشد ضروب التناحر قسوةً بين المخلوقات هي التي جلبت الكائن الأعلى الذي هو الإنسان، والاشتراكية قد ألغت هذا الصراع فحولت روسيا إلى مدجنة....

فقاطعه الشيوعي، ولكنني مضيت، عندما لمحت علماً إسرائيلياً يخفق بين الجموع. ودنوت من مبشر يهودي يعتلي سلماً قصيراً، واضعاً التوراة تحت إبطه الأيسر متحدثاً من خلال مكبر للصوت:

1- علم أصل الإنسان.

- باطلٌ كل ما في هذه الدنيا، هكذا تقول التوراة: رأيت كل الأعمال التي عُملت تحت الشمس فإذا الكل باطل وقبضٌ للريح. لقد وجهت قلبي للحكمة فعرفت أن هذا أيضاً قبض للريح، لأن في كثرة الحكمة كثرة الغم، والذي يزيد علماً يزيد حزناً. الخمر والضحك والفرح باطل. البيوت والكروم والعبيد والجواري والفضة والذهب كلها باطل في باطل. كل ما سأتركه للذي بعدي باطل لأنني لا أعلم أن يكون جاهلاً أم حكيماً. حادثة واحدة وموت واحد يحدث لكل من الإنسان والبهيمة، للحكيم وللجاهل. لذا، لذا يا أحبائي المتنزهين في الهايد بارك، والسائحين، لنسمع ختام الأمر كله، لنسمع الوصية الكبرى لسِفر الجامعة، هل أنتم مستعدون؟ هل أنتم منصتون لتعرفوا وصية التوراة العظمى بعد أن تحدثتُ إليكم ساعة من الزمان؟.

كان الجميع محدقين به صامتين فقال:

- إتق يهوه واحفظ وصاياه لأن هذا هو الإنسان كله. ما هي وصايا يهوه؟: لا يكن لك آلهة إلا الرب، لا تنطق باسم الرب باطلاً، قدِّس يوم السبت، لا تقتل، لا تسرق، لاتزن، لا تشهد بالزور، أكرم أباك وأمك، لا تشته بيت قريبك، لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا حماره.

فقال أحدهم:

- حسناً قبل أن تخبرنا بوصايا يهوه قل لنا من هو يهوه؟

- يهوه الذي خلق الإنسان والشمس والسماء والسحاب والمطر والأرض والنجوم.

- ومن أين جاء هو؟

- لا تقول التوراة من أين جاء يهوه.

- توراة كاملة، مئات الصفحات لا يوجد فيها عبارة واحدة تجيب عن أهم سؤال من أين جاء يهوه؟

- يهوه الذي أنطق حمارة بلعام، وأخرج يونان من بطن الحوت، وشدد بأس شمشون على أعدائه هلاّ عرفته؟

ونظر المستمعون أحدهم إلى آخر، وتجرأ أحدهم وقال مستفهماً:

- من بلعام وشمشون ويونان؟

- حسناً إن معجزات يهوه لا تنتهي، فعندما ضرب النبي بلعام حمارته ثلاث مرات، أنطقها يهوه فقالت: ماذا صنعتُ بك حتى ضربتني ثلاث مرات؟ فقال بلعام: لأنكِ ازدريتِ بي، لو كان في يدي سيف لكنت الآن قد قتلتك. فقالت الحمارة: ألست أنا أتانك التي ركبتَ عليها منذ وجودك إلى هذا اليوم، هل تعودتُ أن أفعل بك هكذا فقال: لا....

فقاطعه أحدهم:

- لماذا لم تعد تتكلم الحمير؟

- لأن يهوه ليس رهن إشارتك، عليك أن تؤمن فقط.

فنظر إلى الباقين مبتسماً.

- كيف لي أن أؤمن؟

- التوراة تُعَرِف الإيمان بأنه: الثقة بما يُرجى، والإيقان بأمور لا ترى.

- حسناً إذا كان لا مجال لتدخل العقل فإنني معطيك من كتب الإيمان ما لا يحصى لتوقن بها.

وقال الأول:

- دعه يكمل المعجزات الباقية.

ثم أردف:

- ما قصة يونان وشمشون؟

- حسناً لقد بلع الحوت يونان في عرض البحر، ثم أخرجه يهوه من جوفه بعد ثلاثة أيام.....

فقاطعه:

- ثلاثة أيام!!... ما الذي فعله يونان ثلاثة أيام في بطن الحوت؟.

- ما الذي فعله.. جلس.

- جلس!!.. هو ليس في كافيتريا أليس كذلك؟

- كان يصلي.

- وكيف كانت وضعيته واقفاً أم منبطحاً أم ماذا أم كيف؟

- يجب أن تؤمن.. يجب أن تؤمن.

وقال الأول:

- وماذا عن شمشون؟

- هذه أيضاً من معجزات يهوه التي عليكم أن تؤمنوا بها. لقد كانت قوة شمشون في شعره، فأغرى أعداؤه حبيبته دليلة بالمال لتقص له خُصَلُه السبع، ففقد قواه. ولكن شمشون دعا يهوه وقال يا سيدي اذكرني

وشددني هذه المرة فقط. فأجابه بما يريد، فقال شمشون علي وعلى أعدائي يا رب وهدم البيت على نفسه والآلاف من أعدائه.

وتفرق معظم الموجودين، وسرت نحو رجل إنكليزي وقور صافي النظرات، خمسيني، لا يعظ ولا يتحرك، وعندما تدنو منه يبيح لك برحابة صدر كل مكنوناته. يقف وحيداً هادئاً قانعاً بجانب لوح أسود كتب عليه بالطبشور "الله الموصوف في الإنجيل والقرآن والتوراة غير موجود، وليس لدينا دليل على أي إله آخر. وكوكبنا ليست سوى حبة غبار ضائعة بين مليارات المجرات في كون معتم سحيق. وليس تمسكنا بالآلهة سوى عزاء لبؤسنا وضياعنا. وليس لنا سوى أن تتطور عقولنا وعلومنا حتى نكتشف الحقيقة بعد آلاف السنين".

لم يكن بحاجة لأن يعظ، فالناس كانت تمر به وتقرأ اللوح ثم تمضي ويبقى وحيداً صامتاً إلا إذا سأله أحدهم. وتصنعت الرعونة، ومررت من أمامه، وصرخت به:

- إذن من خلق العالم؟

فأجاب في هدوء سمرني في مكاني:

- لا نعرف.. لا أحد يعرف...

ومر أسترالي مع زوجته وقرأ اللوح، وأخذا ينظران إلينا، وكان علي أن أقول شيئاً فسألته:

- ما سر إذن كل هؤلاء الواعظين والمبشرين.

- الطبيعة البشرية نفسها تلبس أفكاراً عدة للحفاظ على البقاء ولتحقق ذاتها من الضياع ونفوذها.

وفجأةً عبر ذاكرتي سؤال طالما حيرني في الماضي فأسرعت وقلت:

- ولكن كيف يشعر الصوفيون إذن في خلوة من التأمل بالانفصال عن العالم، وأنهم بين يدي الآلهة، وقد تلاشى إحساسهم بوجودهم المادي كما يتبخر ندى الصباح.. إنني أنا نفسي اختبرت يوماً ما هذا الإنعتاق.

- لقد نوه علم الأعصاب الديني[1] إلى أن تعطيل دوائر الدماغ التي تُميز الفرق بين الذات والعالم، والتي توجهك في المكان، هو الذي يُحدث التجربة الصوفية، فيظن الصوفي أنه يعانق اللامتناهي أو في أحضانه. أما كيف يجري تعطيل هذه المراكز من قِبل الصوفي دون أن يشعر، فذلك ما يتسبب به خشوعه أو تأمله أو صلاته من إيقاف تدفق المعلومات الحسية الأخرى التي تتطلبها هذه المناطق للقيام بعملياتها الحسابية. إن تفصيل ذلك يحتاج إلى كتاب كامل، فالعلماء يستخدمون صور الدماغ لتحديد الدوائر التي تنشط أثناء العبادة، والأخرى التي تتعطل.

لم أكن قد سمعت في الحقيقة بعلم الأعصاب الديني، وقد أدهشتني جداً دقة إجابته.. يا إلهي.. كم العلم محيط متلاطم.. وكم حياتنا قصيرة. وكيف تُهدر في البحث عن اللقمة، ثم نوارى في القبور ونحن لا نعرف أكثر مما علم أجدادنا. لقد قال النبي إيليا: "يا إلهي.. خذ حياتي فأنا لست

1- علم دراسة بيولوجية الأعصاب الخاصة بالدين والروحانية.

أفضل من آبائي". ليت الجميع يشعرون أنه من العار أن لا نتجاوز آباءنا.

وأعطى كلاً مني ومن الأسترالي عنوان "المجمع الأخلاقي" في "هولبورن"، بعد أربع محطات شرق القنطرة المرمرية على الخط المركزي للمترو.

وفي ركن الخطباء ذاك حصلت ذلك اليوم على عناوين كثيرة، تجولت وتجولت حتى نسيت نفسي، كلام وسياسة وهرطقة وتبشير وجنون. فهذا اللوطي ثبَّتَ قرنين على رأسه وصعد إلى منصة يبشر باللواط، وذاك يلعن جون ميجر ويشيد بحزب العمال، وأولئك من عبدة الشيطان حليقي الرؤوس يعلو أجسادهم الوشم ومختلف ضروب الحلقات المغروزة في الأنوف والشفاه والآذان والحواجب، وآخرون طائفيون يوقدون نار التعصب بين الكاثوليك والبروتستانت والشيعة والسنة واليهود والبوذيون والهندوس: متاهة من الآلهة وأمام ذلك كله تلمح الصفاء الأزلي للعشب الأخضر ترف فوقه طيور الهايد بارك البيضاء السعيدة. وقلت يا إلهي.. ليست الأرض سوى رواية إسطورية.

واصطدمت بأحدهم فقلت معتذراً:

- أنا آسف.. أنا حقاً آسف...

فقال بحنق:

- اصبغ شعرك لا تتركه أبيضاً هكذا.

فاستفزني، فرددت:

- من أنت؟ ماذا تريد؟

- ماذا من أنا، أنت هنا في الهايد بارك، تستطيع أن تتكلم عن الملكة نفسها.

- يا إلهي!...

- لأنك إذا لم تصبغه مبكراً لن تتمكن من ذلك عندما يصبح كله أبيض.

ومضى، فرنوت إليه وهو يبحث عن خطيب يشاكسه، لقد تعود على المماحكة وأصبحت تطيب له. وتبعته، فتوقف عند طائفة "شهود يهوه" وبان اختلافهم عن باقي المسيحيين بأنهم لا يعتقدون بأن هناك جنة ونار، وإنما الأبرار يعودون إلى هذه الأرض بالذات بعدما يحولها الله إلى جنة. أما الأشرار فيتلفون ويفنون. وكان ثمة مبشر زنجي قصير وسمين، أشبه بكرة من الحقد ينفث تعصبه هذا لاهثاً منديداً لا يقر له قرار، وقد أُحيط بمتحلقين كالمصيدة يجول بينهم متبادلاً الكراهية. وتعب الحاضرون ولم يتعب، فقال له المقاطع الذي كلمني:

- هل أكلت بقرة قبل أن تأتي.. كف عن أكل لحم البقر المجنون.

فاستمر يعيد ويزيد وكأنما قد رُبط نابضه قبلاً، يرد على النقد اللاذع لمنتقدي طائفته مسعوراً وكأنما لا يريد أن يُقنع أحداً بقدر ما يريد أن يوحي للآخرين بأنه رد الصاع صاعين، لقد مرض الكثيرون بالنكد وبدا ركن الخطباء كأنه مرتع للأحقاد، وكان المقاطع يقول:

- انظروا إلى هذا الواعظ المرعب هل تتوقعون بعد أن تموتوا أن تجدوه في الجنة؟

وذات يوم رأيته في أحد الباصات، وكان يصعد إلى الطابق العلوي ويتخاصم مع أحدهم ويشرح لآخر ويحنق على ثالث، عندها عرفت لماذا يأتي البعض إلى الهايد بارك، إنهم يبدون وكأنما ابتلعوا أفكاراً مدببة وجاءوا ليتقيؤوها مع مسبباتها التي ليست سوى معاناة من أوضاعهم السيئة، من هنا يقول المثل الإنكليزي: اذهب إلى الهايد بارك وانبح كما تشاء.

وسأل المقاطع:

- أيهما أفضل يسوع المسيح أم 15 علبة بيرة.

وضحك المتحلقون بينما لفت انتباهي شيخ معمم متجلبب، وهو ليس إلا المنتصر بالله البلوشي. وهو سني إيراني هارب يتزعم الكفاح في الهايد بارك ضد الشيعة، وكان يدور حوله حوار طائفي عنيف لا تسمح الرقابة عندنا في سورية بنشره، وقد ظهر البلوشي في تلفاز الجزيرة عدة مرات. وذات يوم أُقفل الهايد بارك بسببه أثناء حرب الخليج، حيث فَقَدَ البوليس سيطرته على نزاع كان الشيعة والسنة يضربون فيه بعضهم بعضاً في مشهد بدت الدماء فيه تسيل. وكان معظمهم من العمال المسحوقين، وكان هذا هو السبب التي خَلُصت إليه الشرطة عند كتابتها تقريرها عن ذلك العنف.

إن أكثر ما أضحكني ذلك اليوم خطيب أخرس، فقد كان يقف على حدائد السياج ويخطب بالإشارات، وكان السائحون يصورونه مقهقهين، بعضهم يفهم ما يجود به وآخرون لا يفقهون شيئاً. وكان إلى يمينه شيخان من كنيسة مورمون الأميركية، وهم عادة شبان علقوا على

صدورهم لوحة صغيرة سوداء كُتب عليها اسم الشيخ التابع لكنيسة "يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة". ويبشرون بأن القديس الأخير، وهو النبي "جوزيف سميث"، وجد في غابة في مقاطعة إيوتا في أميركا كتاباً أوحى له الله بأنه انجيل جديد يُضاف إلى العهد القديم والجديد، كُتب فيه تاريخ مجيء مورمون والمسيحيين الأوائل من إسرائيل بعد صلب المسيح إلى أميركا. وتبشيرهم بيسوع الناصري هناك. وعندما يُسأل هؤلاء العشرة ملايين متعصب كيف عُبر المحيط الأطلسي قبل كريستوف كولومبس بألف وخمسمائة عام يجيبون بأن عليك أن تؤمن بذلك كما تؤمن بعصا موسى التي ضربت البحر الأحمر فشقته نصفين.

ووجدت طفلاً في العاشرة من العمر يقف على طاولة ويخطب، ولم يكن يدافع عن فكرة ما فقد كان يمضي على سجيته بما توحي له طفولته.

وكان خمسة من طائفة "أمة الإسلام" - وهي من السود الأمير كيين - يقفون مرتدين طقوماً سوداء تظهر منها ياقات بيضاء وعلى وجوههم نظارات سود ملتفين حول زعيمهم الخطيب، ولم أفهم لم هذا الزي الغريب الذي لا يتناسب مع وجوههم الكالحة السواد، من الواضح أنهم كانوا يحرسون الزعيم الذي لم يكن بإمكان أحد الاقتراب من منصته. وكان المسلمون الشرق أوسطيون يقاطعون خطابه مراراً حانقين على تعاليمه، وكان الزعيم يردد دائماً دعوا الأسئلة حتى النهاية.

وكان ثمة إنكليزي يطوف ركن الخطباء وقد ثبَّتَ على صدره وظهره لوحين كتب على الأول: "أنا الله في جسد". وهي عبارة كان قالها فيما أتذكر راقص الباليه الأوكراني "نجنسكي" الحاصل على جائزة نوبل في منتصف القرن العشرين، وقصد بها ما قصده المتنبي في بيته:

وإنـــي لمـــن قـــومٍ كـــأن نفوســـهمُ

بهـا أُنَـفٌ أن تسـكنَ اللحـمَ والعظـمَ

ولم يتسن لي أن أقرأ ما كتب على لوحه الخلفي وهكذا ضاع هذا المبشر في الهايد بارك دون أن أتبين ما يريد أن يقوله للدنيا.

وكان في ذلك الوقت، خطيب ومعارضة من البحرين وأخرى جزائرية، وكان الإسلاميون المتطرفون عند كل خطوة، وفي كل زاوية، إنك لا تحتك بعربي إلا وتجده متشدداً. وعندما يحل المغيب يركع المسلمون على العشب الأخضر، يسجدون ويصلون ويختتمون النهار. ثمانية أحزاب إسلامية متطرفة متنازعة فيما بينها تحتويها الديموقراطية الإنكليزية، من مختلف أصقاع الأمة العربية. كما تستوعب أحزاباً متطرفة أخرى مثل النازيين الجدد التي تطالب ألمانيا بحظر منشوراتهم. وليس ثمة ما يدعو إلى العجب إذا ما تذكرنا أن غاندي كان يقود الثورة الهندية ضد الاستعمار البريطاني وهو مقيم في لندن، لا تجد الديموقراطية الإنكليزية حجة لاعتقاله.

وبدت اجتماعات أحزاب علمانية واشتراكية إنكليزية تحاور في الوضع الداخلي البريطاني والسياسة الخارجية، ولم أتوقف ذلك اليوم طويلاً عند مناقشاتها، إذ على مبعدة لفتت انتباهي جوقة غريبة دينية تدعى "جيش يسوع"، ولأول وهلة ظننت أنها ليست سوى فرقة للعزف، فقد كانوا يرقصون رجالاً ونساءً بملابس زاهية على إيقاع موسيقا صاخبة تنطلق من قيثاراتهم، ثم فوجئت إذ قالوا لي إنهم لا يرقصون وإنما يُصلون، وتعجبت كثيراً في ذلك اليوم، وأعطوني بطاقة تحمل عنوان الكنيسة، ورمقتني إحدى النساء بنظرة، أو خيل إلي أن نظرتها تنساب علي وكأنما أحبتني، وعندما تركتهم لم أعد متأكداً فيما إذا كانت نظرة إعجاب أم لا.

وتتجول الشرطة هنا وهناك إن الفوضى ممنوعة، إن العنف يودي فوراً إلى السجون، إن مشاحنات المتعصبين تجعل أعين البوليس ترصد من سيبدأ العنف أولاً. إن طبيعة المتعصبين منسوجة من مادة رئيسية هي الكره، ثم بعد ذلك عبادة صنم من أصنام غابر الأزمان. إن المتعصبين هم ملوك الكراهية في هذا العالم، وهم لا يعلمون أنهم يغلون بسبب الفقر ليس إلا، الذي أودى بهم إلى التخلف، والعكس أيضاً صحيح.

ثم تذكرت فجأةً أنني جائع. ومع ذلك شدتني الرغبة في اكتناه السر الذي تخبئه تلك الأشجار ورائها أكثر من الطعام. كان النهار يتلاشى، فسرت وحيداً على العشب الأخضر، مخلفاً ورائي دوامة من الأفكار والأنبياء والثقافات، وتذكرت وأنا أحدق في قدميَّ تطآن العشب البارد

رواية الإغواء الأخير للمسيح وكيف يتخيل كازنتزاكيس المسيح وقد مَثُلَ بين يدي بيلاطس البنطي فسأله أحقاً أنت ابن الله؟

فأجابه يسوع:

- أنا هو

- حسناً، ابن أي إله أنت؟ عندنا في روما من يعبدون الشمس وآخرون النار، وعندنا آلهة لليهود وأخرى للبوذيين، عندنا عبدة الأوثان والمطر والقمر، فابن أي إله أنت منهم؟

وغَرَّدَ حولي كناران، والتمع في البعيد وراء الأغصان مياه مترقرقة.. فقلت آه.. لا بد أنها بحيرة، ودنوت منها رويداً رويداً، لقد بدت شاحبة طويلة أشبه بنهر، وجلست على مقعد الضفة تحت الغيم الذي يلقي عليها لوناً رصاصياً.. وتذكرت نيتشه: "لا تذهب بأفكارك إلى الساحة العامة، ففي الساحة العامة لا يوجد سوى العوام". نعم لم أحب ركن الخطباء كثيراً، ببساطة لأن الحب لا يفكر فيه أحد هناك. كما توحي به هذه البحيرة الحالمة... حتى المبشرين المسيحيين المتطرفين لن يحببنك إلا إذا كنت من طائفتهم، أي حب الذئب للشاة، إنهم ببساطة إذا لم يغرزوا أظافر تعصبهم في جسدك حتى الدم لن يشعروا بالرضا عنك ولن يقولوا لك يا أخي.

وقمت وطفت حول المياه، ثم لمحت في حديقة البحيرة تلك مقهىً يطل زجاجه على أمواج المغيب، فدخلت، وكان أحدهم قد جمع الطيور بجانب واجهة البحيرة وهو يرمي لها فتات الخبز فتدفقَتْ على الزجاج حتى أصبح المشهد ساحراً، ولحظت رجلاً أعمى يدب باتجاه الأشجار

وقلت أه... ليس الجنس البشري بكل فلسفاته وأديانه وعلومه سوى رجل أعمى يتلمس طريقه بعصاه خطوة خطوة.

وعندما عدت إلى مخزن الباكستاني شعرت بالأمان والدفء. وقلت هذا هو مسكني وهذا هو عملي. ورددت: ألم يجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً فهدى، فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر. ثم ضحكت من أعماقي حتى سقطت على أريكة قصر باكنغهام، ضحكاً متتالياً مَرَضياً، مزيجاً من السعادة والجنون، وعندما هدأت قلت: ليست الأرض سوى حكاية... وابتسمت، ونمت.

----------3---

ظل الغيم يجري أمامي طيلة الخريف، والشمس ما إن تظهر حتى تغيب. وعندما هجم الشتاء قطنت حجرة رخيصة في ذلك الحي الذي لا يعرف من لا يغادره في أي بلد هو: خليط عجيب من زنوج وعرب وإيرلنديين، حتى كنت أتسائل مذهولاً هل أنا في بريطانيا حقاً؟ جالساً على مقاعد البيع والرياء، حيث ينتهي النهار مثلما يبتدىء، نور المغيب الواهن يشبه فجر الشوارع الهادئة الكئيبة، ورغم أن العمل كان برداً وسلاماً بالمقارنة مع لو أنني كنت أعمل في مطعم، إلا أنني حلمت ذات ليلة أنني في أدغال إفريقية، أنازع أفيالاً وثيراناً ونموراً تحت سماء ساطعة على عشب أصفر، وعندما استيقظتُ أدركت أن تلك الوحوش الضخمة ليست سوى الخزائن التي تطحن عظامي. ولم يكن بيعنا سوى قدر من الغش متناسب مع غباء أهالي "كيلْبِرْنْ"، وقد فاجأني يوماً مصري على وجهه الاستياء الشديد وقد اكتشف أن سعر السرير الذي اشتراه، جديداً أرخص مما بعناه إياه مستعملاً. وكنت أوفر كل النقود التي أحصل عليها بعدما أدفع أجرة الحجرة، أما الطعام والشراب فقد

كنت انفق عليه من الكومسيون، حيث كنت أحصل على جنيه واحد لكل قطعة أبيعها، وعندما ينعدم البيع يعود إلي دوار الجوع، فألجأ إلى البحث عن قطع نقدية داخل الأرائك المستعملة حيث تكون قد سقطت سهواً من جيوب الذين استخدموها وغاصت في جوفها، وكان يصل بي الأمر إلى حد هز تلك الأرائك فأكتشف في أي موضع استقرت به. وكنت أطلب بقشيشاً من الزبائن تلبيةً لرغبتهم في حمل السلع إلى السيارات، أما أجرتي فتظل كاملة لا أمسها. وقد نشأت الحاجة بعد مدة إلى مكان أضع فيه هذه النقود. فقد كنت أخشى الذهاب إلى البنوك بجواز فيه فيزا مكسورة رغم أن لا أحد يدقق في ذلك، فكنت أضعها داخل أعمدة السرير وأحياناً في مفاتيح الكهرباء أو في الخزائن، وذات يوم أخذتها إلى خوري الكنيسة الأرثوذكسية العربية، فتعجب وقال لي نحن لسنا في زمن الحروب حتى تودع الأمانات بهذه الطريقة، فقلت له إنني في حالة حرب، فتأملني وقال أرجو ألا تكون في حالة حرب مع الله، وأخذها وخبأها عنده ثلاثة شهور. وكنت كل يوم أحد أذهب إلى القداس وأطمئن عليه أنه لم يمت. وقد أهديته ذات يوم أحد كتبي فظل في المكان الذي وضعه فيه على المكتب شهراً بعد شهر وقد علته الأوراق حتى لم يعد يظهر. وكانت الصلاة تجري رتيبة فما إن تنتهي حتى يترك الناس صور القديسين ويتسابقوا إلى أغنى رجل لكي يحيوه ويظهروا له مودتهم. أما أنا فظللت وحيداً لا أحد يكترث بي، أرقب الأيام الغريبة، والسماء غائمة غائمة، ولو أنها لا تشرق أبداً لكان أفضل، إن المرء ما إن يراها حتى يتعلق قلبه بها ويصبح فراقها ملوعاً.

وكنت حين أعود إلى حجرتي، أخلد إلى السرير فوراً، وألوذ بمذياع صغير بحجم الكف، وكان هذا الراديو يشيع التراخي في جسمي المجهد، والهدوء في أعصابي، بما يتسرب إلى نفسي من خدر أغانٍ عربية تبثها إذاعة "سبيكتروم" اللندنية، ولأن رئيسها فلاَح الهاشم[1] كان يحب عبد الحليم كثيراً، كان يُسمع الجالية العربية كل يوم أغنية طويلة له، وكنت لا ألومه على ذلك بقدر ما ألومه على الأغاني المبتذلة الجديدة، وقد استنتجت أن أية إذاعة لا يمكن أن تتفادى مثل هذه الأغاني. وكان سر نجاح فلاَح الهاشم الكبير أنه لا يوجد سلطة فوق رأسه يُسوِّق أصنام أيدلوجيتها، فبدا صادقاً، وملأ أوقات البث بالأدب إلى درجة أن الناس كانوا يتركون التلفاز ويستمعون إليه، والحقيقة أن نبرة صوته الوجدانية كانت تخفي قلباً حقيقياً لإنسان غزير الثقافة، فاكتشفت في تلك الفترة أن المذيع مثل الفنان يجب أن يؤثر في ضمير الأمة. وكان بإفساح المجال للمستمعين داخل بثه اللندني بالاتصال بإذاعته والتحدث عما يشاءون، يُظهر هموم الجالية العربية كلها، وحوائجهم وآراءهم الدينية والسياسية، وقد جعلني هذا أفهم أن العرب مختلفون كما هم عليه في الوطن العربي، فأحدهم متدين والآخر علماني والثالث معتدل ولكن كل منهم يريد أن يمسك بخناق الآخر ويكتم أنفاسه. ومن ذلك المنبر الديموقراطي استطعت أن أستوعب أيضاً سيكولجية العرب المتناثرين في لندن: إن أكثر ما يعانونه العزلة، وأكثر

1- عراقي.

شيء يرغبون به العودة إلى الوطن، حتى أن طالبة هتفت له ذات يوم أنها لم تجد شيئاً واحداً إيجابياً أو طيباً في لندن أبداً. وكان فلاَح يرد عليهم أن لندن من أعظم عواصم العالم، وينصحهم بزيارة المكتبات والمتاحف والحدائق وليس فقط الجلوس في البيت. وبدا أكثر المحزونين من الجزائر، شاكين يائسين من أن ذويهم يُذبحون على أيدي المتطرفين يومياً في القرى والمدن بتنكيل أشد رعباً مما تفعله كواسر الوحوش[1] وكان يجيب بأن ما يمر به وطننا من مآسٍ قد مر على كل البلدان، وأن الأوروبيون قد مزقوا بعضهم تمزيقاً في العصور الوسطى قبل أن تشرق عليهم شمس العلم، وقال ذات يوم أن ثمة سلاطين وطغاة قد بنوا بيوتاً وقلاعاً من جماجم. وقد أحبه كثير جداً من المستمعين، وخصوصاً النساء، فالمتوحد يميل إلى عشق الممثلين والممثلات ومُقدمي البرامج، ولكن ذلك الشاعر بالذات الذي أعتاد أن يحب الفقير قبل أن يمنحه قلبه ويكلمه، قد بدت رحابة صدره غير معقولة، وكان شجى صوته

1- كان هول المجازر التي وقعت في ذلك الزمن قد جعل الجزائر تفوح بالعار، فقد كان الناس يستيقظون ليروا ثلاثمائة جثة مرمية في الطرقات، أوصالها متناثرة، أعضائها مبتورة، رقابها مفصولة، فكنتَ تجد يداً في مكان ورجلاً في مكان آخر، ورأساً مرمياً في بركة من التراب والدم، وطفلاً مربوطاً إلى شجرة وفي بطنه خنجر. وكان الناجون يتحدثون عن فرسان ملتحين مزودين ببلطات قد جزوا الأعناق وخطفوا النساء وسرقوا الأموال وضربوا الأولاد من على خيولهم فشقوا أجسامهم نصفين، ولم تتوقف المآسي حتى أرسلت بروكسل وفداً أوروبياً للمصالحة، جعل ضحايا المجازر التي لم تنته إلى الآن أقل عدداً.

المخملي يوصلني وأنا مسترخٍ على السرير إلى إطمئنان من النوم لا ينجح بفعله الفاليوم، وكان يُعيد ثم يُعيد أغنية عبد الحليم:

مشيت على الأشواك

و جيت لأحبابك

لا عرفوا إيه ودَّاك

ولا عرفوا إيه جابك

ولم يفت إذاعة "سبيكتروم" التي كانت تبث أربعة ساعات فقط مساءً، مطالعات الصحف الإنكليزية، فعشية الانتخابات كتبت الغارديان تقريراً مفصلاً عن الفساد في حزب المحافظين، وأشارت إلى الوزير - الذي استقال فوراً - بعد انتشار نبأ تلقيه 25 ألف جنيه رشوة من رجل الأعمال المصري محمد الفايد. وظلت جريدة ال "SUN" حتى قبل الانتخابات بأسبوعين موالية لجون ميجر، وعندما تأكد لصاحبها الملياردير أنه خاسر لا محالة غيرت الجريدة رأيها بحزب المحافظين فأصبحت تكتب لصالح حزب العمال. وتَرافقَ تبادل الاتهامات بين حزب المحافظين والعمال مع حرب الملصقات الجدارية، وكنتُ أتابعها عندما أفتح المخزن في الصباح وأُخرج بعض الأشياء إلى الرصيف. وقد أظهر مُلصق للمحافظين المواطن يبكي دماً في حال فوز طوني بلير، بينما صَوَرَ ملصق عمالي قبضة قوية تضغط على بيضة، في إشارة إلى أن المحافظين سيفرضون ضريبة القيمة المضافة حتى على المواد الغذائية.

على هذا المنوال كان يبدأ نهاري: مطالعة الملصقات، عرض السلع التي نتصور أنها مغرية على الرصيف، إزالة الغبار عن الأثاث، ثم أجلس على أريكة وأحدق في الطريق: من سيزورني اليوم؟.. من ستُدخل أيها الباب؟.

وقد شعرت بحيوية غريبة في الأشهر الثلاثة الأولى، ناشئة عن العمل العضلي وحرية المدينة والبشر بشكل عام والنقود التي أخذت تزداد، والغريب أنني لم أعد أردد أنني كبرت وأن الحياة لم تَعُدْ تَعِد بشيء، على العكس فقد تفتحَتْ في عقلي صمامات السعادة المغلقة وأدركت تماماً ما كان يعنيه تولستوي بأن الحرية ليست التحرر من الواجب وإنما القيام به على أكمل وجه. وكان معظم الفرح الذي شاع في نفسي ناجماً عن اكتشافي كل دقيقة لأشياء جديدة، وتعرفي على عالم آخر، وتفاصيل مثيرة. كنت ببساطة أتجدد، وكنت كلما عملتُ وازدادَتْ نقودي أشعر بالحياة تتدفق أكثر وأكثر في مسامات جسدي، فأنطلق فرِحاً شاعراً أن شبابي يرجع، وأن الخزائن خفيفة كزنبقة. وما إن انقضت الثلاثة شهور حتى أتقنت البيع بصورة أدهشَتْ حسين وأولاده جميعاً، فقد كنت أتأمل الزبون من الزجاج قبل أن يغشى المحل، وأرقب أين يوقف سيارته، ونوعها، وحجمها، فالذي يُبعد سيارته عن المدخل غالباً ما تكون جديدة لا يريد من البائع أن يطمع به، أو يظهر بخيلاً، ونوع السيارة يحدد مدى ثراء المشتري، كما أن حجمها يجعلني أميل إلى إقناعه بسلعة تستوعبها بحيث يأخذها فوراً. وبعد أن يدخل يجب أن أرى مدى تلهفه للسلعة وفيما إذا كان رآها قبلاً أم لا. ثم علي أن أدرك

هل يمل من الإلحاح بسرعة فيدفع ويمضي أم هو بخيل عنيد؟ هل هو مخاتل حتى أُظهر إعجابي بذكائه وأوقعه في حبائله؟ هل هو شريف حتى أغشه؟ هل هو وغد حتى أُكرمه؟ هل هي امرأة حتى أتملى بحسنها، أم هي عجوز حتى أُقبلها حال دخولها؟ فإن كانت في الأربعين أقول لها تبدين في العشرين، وإن كانت في العشرين أقول تبدين كالحساسين، وإن كانت يمنية أقول تبدين لبنانية وأن كانت لبنانية أقول تبدين إنكليزية. ثم أصبحت ماهراً في إيجاد النكات، إن الضحك أقصر طريق إلى قلب الزبون، الذي يعز عليه في النهاية أن يفارقك دون أن يرضي خاطرك. وكنت قبل ذلك أَلِمُ بكل تفاصيل السلع التي تدخل المحل فأصلحها وأرتقها وأنظفها فما إن يومىء الزبون إلى شيء حتى أقول له مشدوهاً: يا إلهي.. كنْتُ على وشك أن آخذه إلى منزلي لأنني وجدته رائعاً جداً. ثم أبدأ بفرح تمثيلية أنسى خلالها نفسي، هدفها ألا يَخدش صفاء الحوار في النهاية. ويخفض السعر. فإذا فعل كنت أرفعه قليلاً جداً عما اقترحه حتى لا يشعر بأنني راضٍ، وحتى لا يتسنى له أن يغادر فجأة بسبب اتساع الفرق. وإذا ما بدأت بخفض السعر بنفسي فإنني لا أنقصه فجأةً بدرجة كبيرة حتى لا يستخف بالسلعة، أما إذا وجدته مقتنعاً بالشيء أعمد إلى القول بأنني لست صاحب المخزن، ولا يحق لي خفض الأسعار. وكنت خلال ذلك كله أشعر باندفاع غريب كمن يوصل عِلماً ما إلى أعلى طابق للكمال. وكان حسين ينظر إلي مبهوتاً فقد وجد مسرحياته في البيع قد غدت عندي مهرجانات. فأخذ يبقيني طوال اليوم في المخزن ويرسل أولاده للتحميل. وكنت في البداية

أفضل التحميل على الكذب، فقد كنت أشعر أن شيئاً يتحطم في داخلي عند أدنى لفظة أو إيماءة خادعة، ولكن شهراً بعد شهر صرت، ويا للغرابة، أشعر بالغبطة كلما ازدادت مهارتي بفن الخداع والمخاتلة، إلى حد أوصلني إلى نتيجة عجيبة لم أقرأ عنها في يوم من الأيام. وهي: إذا انتهيت إلى آخر حدود الموهبة بفن الكذب تكون قد وصلت إلى الصدق.

وإنني إذ أفكر اليوم بالعبارة السابقة أكتشف أن نفسي لا تتوازن إلا بتطويرها عبر شيء، والوصول به إلى الذرى، بغض النظر عما إذا كان ذلك الشيء الأدب أم القتل، طالما أنني أصعد: إن الحياة بالنسبة إلي ارتقاء.

وفي الآحاد كنت أزور ساعة "بيغ بن" وأصغي إلى لحنها الذي وضعه الموسيقار "هاندل"، متأملاً البرلمان والنهر والتماثيل. يلفت انتباهي الملك ريتشارد على صهوة جواده مشهراً سيفه، وكان قد أُسر في الحروب الصليبية على يد صلاح الدين ثم أُطلق. أو أتنزه في البيكادلِّي ومن هناك إلى ساحة "الترافجلر" حيث يتجمع المتظاهرون والمحتجون والمحتفلون. أو أغشى المسجد الكبير وأتأمل كتبه العشرة آلاف، ومحرابه الذي كانت سورية قد تبرعت به. ومن بين المتاحف كنت أطيل التحديق بلوحات المعرض الوطني، حيث وقفت ذات أحد أمام لوحات رامبرانت ودافنشي إلى أن ذرفت عيناي الدمع. وفي متحف الشمع وقفت ذات يوم أمام أحد التماثيل لأكتشف بعدما ابتسمَ أنه ليس سوى الحارس. أما أكثر المنتزهات التي ترددْتُ عليها فكان الهايد بارك ثم ال غرينتش بارك حيث شاهدت خط الزوال الوهمي الذي

يفصل الكرة الأرضية إلى نصفين، فوضعت رِجلاً على يمين الخط النحاسي وأخرى على يساره وبذلك كنت في آن واحد في الشرق والغرب. ورغم أنني لم أكن أتسوق كنت أزور شارع أكسفورد أو مُجمع "هارودز" الذي يُعد أفخر محل في العالم، حيث يعمل به 5000 بائع وبائعة، ويملكه رجل السبعة مليارات دولار محمد الفايد. وقرب محل "هارودز" في حي "النايت بريدج" الراقي اكتشفت مكتبة عربية تدعى "الكشكول" لـ «رياض نجيب الريس»، كما ترددت على مكتبة "الورَّاق" في حي "هَمَرْ سميث" وعلى أخرى ضخمة تدعى "الساقي" في حي "الماء السلسبيل". وذات أحد رأيت جوقة "راما كريشنا" تطوف في البيكادلِّي، فتبعتهم ودعوني إلى المعبد مع آخرين، وجلسنا في صالة أشبه بمتحف هندي من الصور الملونة والبخور وتماثيل الآلهة. اقتعدنا الأرض المهيبة المقدسة، واستمعنا إلى الواعظ الذي حالما نطق سألنا عن أعمق الجروح التي تقلق أرواحنا، فشرحت له قصتي، فقال إن "البهاغافادغيتا" تُشير إلى أن للإنسان الحق بالعمل فقط وليس بثماره، وبائس هو من يعمل من أجل النتائج. وكانت إمرأة إنكليزية معتنقة الهندوسية تطوف حولنا بملابس هندية فلوكلورية، واقتربت مني أول مرة ومعها ثلاث شموع لأتضوع بها، ثم جاءت ثانيةً ورشت فوق رأسي ماءً مقدساً، ثم عادت أخيراً ومعها زهرة قربتها من أنفي. أما أنا فنظرت إلى الشيء الوحيد العاري في جسدها وهو قدماها الحافيتان اللامعتان اللتان يشوبهما حُمرة أشبه بحمرة الخجل، واستيقظَتْ بواعثي، وقلت لو أنني أُعانقها فسأُقبل هاتين القدمين بالذات.

رغم أنني لم أكن معدماً، ففي الآحاد كانت غالباً ما تسوقني قدماي إلى "سوهو" فأتامل المسارح والمطاعم الصينية وتمثال إيروس "إله الحب" الذي يصوب سهام الحب نحو قلوب المارين. وينتهي بي الحال إلى النساء، اللواتي كن يتقاضين عشرين جنيهاً مقابل عشرين دقيقة: بيضاوات وصفراوات وزنجيات ومن كل بلدان العالم، أما كيف أطلقت قدما الهندوسية رغائبي فلا أزال أتفكر به حتى الآن.

ولكن حسيناً الخبيث كسر فسحة الآحاد، فعندما وجد المخزن ينضح خمسمائة جنيه في اليوم، بلغ جشعه مداه وقرر أن علي أن أفتح يوم الأحد. وكان جشعي أيضاً قد بلغ مداه فقبلت. وأخذت تمر الآحاد كباقي الأيام أتوماتيكية، في دوران يحول القلب إلى عجلة. ولم نعطل حتى ماتت الأميرة ديانا، في حادث سير مع صديقها ابن محمد الفايد، فأعلنت البلاد الحداد... في ذلك اليوم المشؤوم فقط أغلقنا المخزن. وذهبْتُ لوحدي إلى الجنازة، حيث أُلقيت مليون وردة على سياج قصر باكنغهام، وعُزفت الموسيقى الكلاسيكية بين الجموع الكئيبة. كانت تلك المرة الأولى في حياتي التي أرى فيها شعباً يحزن أو على الأقل لا يفرح لموت زعيم كما يحدث عندنا. وشاطرت المحطات التلفزيونية محمد الفايد حزنه، بعدما صورَتْ في مرة سابقة أزقة الإسكندرية وبؤسها، وتحدثت عن أصله الوضيع الذي جعله يُرفض من قِبَل مجتمع الأرستقراطيين الإنكليز.

ولم يذهب حسين أو أحد من أولاده إلى الجنازة، بل الأسوأ من هذا أنه اتصل بي في المساء قائلاً إن ثمة كرسياً هزازاً مرمياً في شارع

كيلبرن الرئيسي، شاهده وهو يعبر مع زوجته منذ قليل، وطلب مني أن أقوم وأجلبه إلى المخزن، فذهبت وفتشت ولم أجد شيئاً.

وغدت الآحاد حزينة حزينة. انتظار للزبائن كباقي الأيام، ولا شيء سوى غضب السماء الشتائية فوق البيوت القرميدية، لقد كانت المياه التي تسيل على زجاج المخزن لا تسمح برؤية أي شيء سوى ضوء كدر كامد نيلي.

وكنت غالباً ما أتذكر مراهقتي، تمر بخيالي كل المراهقات اللواتي أحببتهن، كل الرؤى، كل الأحلام: الدموع السعيدة، تدفق الأيام والأمطار، الهروب القدسي من المدرسة، لقد تذكرت كل الأسماء ولم يتذكرني أحد.

وذات يوم أرسل بي تذكار الحب الأول في الثالثة عشر من العمر، إلى دوار من الذكريات والحنين أسالَ دموعي، فطفقت أغني مخموراً وقد دهمني العهد القديم بكل دفئه وأحلامه، دون أن أعي أن صوتي يملأ أرجاء المخزن فقال لي الباكستاني:

- إنك على وشك أن ترقص.

وطرت غبطةً، وأنا أعلم أنه ينظر إلي كمجنون، ومرت فتاة لبنانية تعمل في مكتب العقارات الليبي المجاور اسمها لبنى، أمام زجاج المخزن فهرعْتُ إلى الباب، وقلت لها بيت قيس ابن ذريح:

إذا ما نادى المنادي باسم لبنى

عييتُ فلا أطيقُ له جوابا

فضحكت وسألتني من أين أنا، وبدلاً من أن أجيب، أكملت لها القصيدة:

ومـــا أحببـــتُ أرضـــكمُ ولكـــنْ

جئتُ أُقبلُ إثـرَ مـن وطـىءَ التـرابَ

فازدادت فضولاً، كيف تَكسَّر بسرعة الحاجز بيني وبينها، وأومأت إلي بأن أكمل فقلت بلوعة مسرحية:

بينـــي وبينهـــا مرمـــى العصـــا

وبعيـــدةٌ عنـــي بعـــد الســـما

ولكن عندما علمَتْ أنني لست صاحب المخزن تركتني ومضت، ومع ذلك فقد طفت بين الخزائن طرباً، وأنا أغني:

لولا الملامة يا هوى

لولا الملامة

لَفْرِد جناحي ع الهوى

زي اليمامة

كان فرح ما يدفعني إلى الجنون، وكنت أتوارى عن مرأى الباكستاني، ولكنه لمحني من المكتب فقال:

- كنت أعلم أنك سترقص.

فانكفأت إلى الباب، ووقفت وحيداً، هيام قديم كان يمور في داخلي، أشجان منسية، ذكريات دهَمَتْ مخيلتي كنوبة من الصرع، فظللت أنظر إلى الغيم حتى كدت أغيب عن الوعي. فمنذ مدة وكما تأتي ريح الليل

عبر التلال، أو يتناهى صفير القطار من محطة بعيدة، أو كما يتدفق شلال الضياء من القمر فيملىء مدينة معتمة بالسحر، هكذا كانت تدنو رويداً رويداً محملة بالذكريات عربة المراهقة.. هناك... في وادي الحنين.. كنت أحب ماريا.. ولكنني تذكرْتُ أن أهلي هم الذين أول من قال لي أنني أحبها، وأن رفاقي يرونها في عينيَّ فصرت أحبها كما تحب الريح العشب المنسي في البراري، ووُهبْتُ قلباً جديداً سعيداً كسعادة بحر تحت الشمس، ونبت لي جناحان أبيضان، ولكنني أنا لم أكن أدري قبلاً، الناس هم الذين علموننني أنني أحبها، ويوم اكتشفت كلمة حبيبتي لأول مرة، دمعت عيناي فقالت عند لقاؤنا الأول:

- رباه.. أنت تبكي... أنا أيضاً خائفة.

فأجبت بنبرة متماسكة أدهشتها:

- ممن؟

- لا ليس من أحد.. أقصد لا أدري ممن...

فنظرت إليها كأنما أراها لأول مرة:

- أأنت هانئة؟

- بل كأنني في حلم.. لذلك لست أدري..

وصمَتُ، فأردفَتْ:

- أهذه على أهدابكَ وخديكَ دموع؟

- أجل

- لِمَ؟

- ظننتك لا تأتين.

فارتجف صوتها أكثر:

- لم تؤمن بي؟

- لست أدري كل الذين يعدونني لا يأتون... لقد جلبت لكِ رسالة

ومدت يدها لتأخذها فقلت خائفاً:

- أتذهبين؟

- سأذهب

- لماذا؟

فقالت وقد وصلت رقة صوتها إلى تلك الدرجة التي يمكن أن يصف بها شاعر براءة وجهها:

- لأنني خائفة وأنت تبكي

- لن أبكي.. أعدك

- أحبك أن تبكي.. يصبح وجهك جميلاً

- ماريا... في الرسالة أيضاً صورتي

- سأحفظها غير بعيد عن قلبي!

وكما ترفرف يمامة بيضاء مفارقة قرميد المدارس سعيدة هكذا ركضت نحيلة فرحة

- ماريا...

ولم تلتفت حتى وهي تغيب عند المفرق، وعدت حزيناً سعيداً: رائحة الأرض والأشجار الغريقة بأول أمطار الشتاء اجتاحت مشاعري كأنها من عطور، وسقط شعاع على قطرة مطر عالقة فتشتتَتْ سبعة ألوان، ووصلتُ إلى حديقة البيت، نظرتُ إلى كل شيء وفي نفسي

وميض مُسكر، امتزج مع ألحان تنساب من حجرة أمي، فتسللْتُ إلى هناك، أصابعها تعزف الأيام على البيانو قرب نافذة الحديقة التي ترتعش من المطر، ولمحت الطيور تهاجر، وأمي تعزف الزمن على البيانو، وتقدمْتُ فسبحنا كلانا بالنور الحزين، وغمرنا الإيقاع المسحور للحن القدر، وكدت أهتف:

- أمي لقد أحببت.

ولكنني قلت بفرح:

- لقد جاء الشتاء.

- رباه كم كبرت.. وتألقت عيناك!

- لقد جاء الشتاء يا أمي.

- وغدا صوتك رقيقاً ولكنه عميق.

- لقد جاء الشتاء.. لقد جاء الشتاء.

- ووجهك كإشراقة الصباح.

- أمي.

- وستسمع هذه المعزوفة في حفلة الغد.

- أهو لحن البرد؟

- بل اسمه "أول أيام الحب".

أسماء ورؤى كثيرة عمَّدتني بخدر جعل أتوماتيكية المتجر برداً وسلاماً، إن حياة التجار سخيفة سخيفة، كل الذي يفعلونه أنهم يشترون بسعر ويبيعون بسعر وعلى أية حضارة قادمة أن تكون أكثر عدلاً من أن تعطي معلم المدرسة في شهر ما يسلبه التاجر في يوم.

وصرت أعرف الزبون الجاد من العابر بلمحة بصر، وصرت أقرأ في تعابير وجهه وحركات يديه وهو يطوف المخزن إذا كان راغباً في الشراء، فإن كان لا، أسأله "من أين أنت؟"، فإذا كان إيطالياً أحدثه عن دانتي وإن كان كولومبياً أكلمه عن غابريل غارسيا ماركيز، فكنت أملأ النهار بالحوارات عندما لا يكون الباكستاني موجوداً. حتى صرت من ملامح الوجه أعرف الزائر من أي بلد أتى، ومن تعابير الوجه أميز بين الأوربيين الشرقيين، وبين الغربيين، والهندي من الباكستاني، والصيني من الياباني، وكان العرب الذين أتوا على مخزننا كثيرين، كثيرين جداً، كانت هموم الأمة العربية كلها تجتمع عندي، فصرت أعرف العربي من أي قطر هو من أول عبارة، حتى لو نطق بها بالإنكليزية، واكتشفت أن العرب يتجنبون بعضهم هنا، وقد قال لي أحدهم: الأفضل لك أن تحتك بشفرة سكين من أن تحتك بعربي.

وكان البيع يصل إلى ذروته، ثم ينحدر إلى قاعه: إما أن نبيع أو تصبح العائلة كلها في جحيم، وتنطلق اللعنات: يا للمطر اليوم، متى تتوقف هذه اللعنة؟ ولا تلبث المشاكل أن تنشأ ويكون مرده كله توترنا الناجم عن عدم البيع. وكان غضب الله في وجه حسين في كلا الحالتين، فعندما نبيع جيداً يشمخ بأنفه ويَظهر بحركات رجل أعمال وقور لا يطاق، وينادني استهزاءً سمير خان وأحياناً سمير خان زاده. أما عندما لا نبيع فيتذكرني وينظر إلي متوسلاً لربما بإمكاني جلب الزبائن، أو يهددني: سمير، بلهجة تحذيرية، وكأن في يدي سحب الناس من الخارج أو شفطهم بطريقة ما.

ولكن ما خفف من وطأته على كبريائي اكتشافي أنه يعامل أسرته بنفس الهمجية، ومع ذلك ظلت روحه ثقيلة جداً على نفسي، فلا أقترب منه وأختفي عندما يحاذيني.

والأغرب أنه عندما يبيع جيداً فإن مزاجه لا يعتدل على العكس فإنه يصبح فظاً لا يحتمل بصورة تبعث على الدهشة، إنه يشعر بقوته ويستعمل هذه القوة في الرعونة. وعندما تهوي نسبة المبيعات يصبح ضعيفاً لدرجة أنك تحسبه رقيقاً: لا أحد سوف يصدقني إن قلت أنني كنت أشعر بالخوف عندما أبيع وليس عندما لا أبيع حيث يبدو مهزوماً، فقدَ أنيابه، الكلام لا يخرج من حلقه، فما إن أعلن له أنني بعت بخمسمائة جنيه حتى يعود إلى العض.

وكنت لا أحاول أبداً أن أوجه له نقداً، لأنني كنت على قناعة أمي بأن الإنسان لا يملك أن يغير الإنسان، ولم أكن أحقد عليه لأنني أعلم أن صراعي ليس معه وإنما مع القدر ولقمة العيش، ولكن عندما يصل بسخطه إلى حد ضرب أحد ولديه الصغيرين كنت أفقد صوابي فأصرخ به: سيطر على أعصابك. وكانت زهرة هي الوحيدة التي لا يطالها جحيمه، فما إن ترمقه بعينيها حتى يصبح ملاكاً.

ولم أكن أنا نفسي حليماً، كان الحنق يعصف بأعماقي، ويهيب بي إلى ترك العمل في كل لحظة، ولكن تمرين الإرادة على الحلم، هو الذي جعلني أجمع ثلاثة آلاف جنيه في ستة أشهر. إن الحليم يكسب العالم. كان معلمي الغضب الأعمى ذاته، وعندما علم أنني أتفادى الاحتكاك به بألف وسيلة جن جنونه، وبعد مدة اكتشف أنه من الأفضل أن أتفاداه

حتى لا يخسرني. ولكن ماذا لو فعل أبناؤه ذات يوم مثلي؟ سيجد نفسه في اللجة وحيداً، تماماً كما قال سليمان الحكيم: من يُكدر بيته يرث الريح.

وكان أحياناً يرسل لي زهرة لتستلم النقود في المساء، وكنت أطيرهم في الهواء فوق رأسها ضاحكاً في تمثيلية من الهستيريا تبعث بها على فرح أقرب إلى الجنون.

وقلت لها ذات مساء:

- لماذا لم تأتِ البارحة، لقد امتلأ النهار بالنقود ولكن مع ذلك شعرت به بخيلاً مملاً ينقصه شيء.

فقالت:

- كانت السماء المعتمة صافية إلى حد بدت فيه مجرة "غيمة ماجلان" ساطعة كماسة للعين المجردة، فوقفت أرقبها حتى تولاني النعاس.

في ذلك المخزن اكتشفت أن ما يدعى بالعلاقات الإنسانية ليس سوى بورصة فظيعة من النفاق، وأن الحب هو المخلص الوحيد. واكتشفت أن عليك أن تلامس الناس بقلبك فقط، ولكن قلبك ليس مكنسة لكل عابر سبيل: في الوقت الذي أصبحت فيه أنثر بواعث سعادتي على الآخرين، مبرمجاً رقة تعابيري وعطاء روحي حسب التسلسل الهرمي لشخوص المجتمع، فإذا كان الرجل غنياً يرتفع ترمومتر الكياسة عندي إلى أعلى نقطة والعكس بالعكس.

وعاد الثلج إلى التهطال، فكتبت قصيدة أسميتها "أيام الباكستاني" وأنا أرنو إلى ندفاته تمحي الطريق والقرميد. وكانت سكرانة أيرلندية تدخل إلي متجمدة مترنحة وبيدها زجاجة، وتجلس بين الأثاث العتيق، وكانت الوحيدة التي أتبادل معها الحديث في المجتمع البريطاني. وقالت لي ذات مرة أن الإنكليز على الرغم من مظهرهم الخارجي الأنيق إلا أن ملابسهم الداخلية قذرة، وأن الألمان أكثر الشعوب نظافة في ملابسهم الداخلية. وقد لفتت انتباهي إلى أن الأيرلنديين معظمهم فقراء، إنك ما إن تحتك بأحدهم حتى تلامس ألف جرح، وحتى تكتشف فيه طبيعة شخص من بلدان العالم الثالث، وهم يقولون أن الإنكليز يعاملونهم كمواطنين درجة ثانية، وهذه هي الجذور الحقيقية للإرهاب البروتستانتي الذي استمر مائة عام.

هذا بالضبط ما كان يحصل لعمَر، لقد كان عمر الابن الوحيد لحسين بالتبني، ومن دراستي لسلوكه كنت ألمح كيف يزداد تطرفه الديني طرداً مع تمييز أبوه لإخوته عليه وتفضيلهم وينقص عندما يعود ويرأف به، وكأنما يهدده ويتوعده بهذا التشدد كل لحظة إذا ما تم تجاهله. ولقد أحبني وتعلق بي أثناء التحميل كثيراً كأنما أنا والده الحقيقي، وعندما تُرِكتُ في المخزن للبيع أخذ يزورني سراً بين حين وآخر ويحدثني طويلاً عن القرآن فأظل صامتاً. وذات يوم كنا نشحن سويةً سجادة إيرانية منطلقين مسرورين حيث بُحتُ له أن أبويَّ ليسا على دينه... فأحسست وكأن شيئاً هائلاً قد تحطم في داخله، ولبرهة قاد الشاحنة

كـالأعمى، ثـم توقـف عنـدما شـعر بـذلك، وأحنـى رأسـه علـى المقـود، وبصعوبة خرجت الكلمات على شفتيه وقال بصوت واهن:

- ألم تقل إنك عربي؟

- أجل إنني لكذلك.

وأردف بحدة:

- أيوجد عرب غير مسلمين؟

- نعم.

ومنذ ذلك اليوم تغير كل شيء بيننا، وفي اليوم التالي دس بحنق هذه العبارة في حديث ليس له صلة "كنا نظنك أخاً لنا في الإسلام"، وكأنما كان يفكر بذلك طيلة الليل. ومما يُدهِش حقاً أنه في مساء اليوم نفسه ظهر الشيخ القرضاوي في تلفزيون الجزيرة يقول: "إن أخاك الحقيقي هو أخوك في القلب وليس في الإسلام". وكانت تلك الصدفة أغرب ما وقع لي في بريطانيا. ورغم أنه كان يحتك بكثير من الإنكليز في الكلية إلا أنه كان يريد أنا بالذات أن أكون مسلماً، فقد كان يُغرم بي يوماً بعد يوم ويتحدث لعائلته عن أن مثلي ما يمكن أن يدعى "مسلماً حقيقياً"، وعندما صُدم كَبَتَ كرهي في أغوار عقله الباطن وأخذ يظهر ذلك في سلوكه. وذات مرة سألني برعب:

- ولكنكَ لست يهودياً على الأقل؟

- لا.

أما عمران فقد كان يدير المخزن الثاني، وكان يفكر في الزواج كثيراً، فلم يكن قد مارس الجنس بعد، رغم أنه جاوز الخامسة

والعشرين، وأي إنكليزي حتى ذلك السن يبلغ عدد اللواتي عاشرهن المائة.

وكان هو من أرسل أرائك قصر باكنغهام إلينا، وبعد مدة أخذَتْ رائحتها تفوح، فقررنا رميها. وعندما أخرجتها إلى الرصيف بانتظار شاحنة النفايات حتى تأتي فأرشي سائقها لتبتلعها، مر تركي وقال:

- بكم هذه الأرائك؟

فأجبت مبتسماً:

- يا لمكرك يا أخي.. من أول نظرة عرفت أفضل ما عندنا.. يا لذكائك... إن لهم اثنتا عشرة عجلة صغيرة....

- حسناً لكل قطعة أربع عجلات.. بكم؟

- يا لنظافتهم.. كأنهم خرجوا الآن من المصنع، انظر إلى ألوانهم فقط!

- إنها جرداء.

- هنا السر! تلألأ الألوان المختفية.. حسناً.. لك لأنك أحببتهم مائة جنيه.

- كثير لمثل هذا.. كثير جداً.

- الثلاثة قطع كلهم.

- من فضلك أعطني سعر جيد إن أردت بيعهم.

- سبعون.

- لا.

- حسناً اعطني أربعون وننقله لك مجاناً.

- لا.

- عشرون.
- كثير.
- حسناً عشرة.. السعر الأخير.
وتركته، فأخذ يحدق بهم ويدمدم:
- عشرة.. عشرة..
ثم أدار ظهره وذهب.
- خذهم مجاناً!
وعاد ينظر إليهم ثم سأل:
- ومن سينقلهم؟
- أعطني العنوان.
- هل معك سيجارة.
- أجل خذ.
- ولكنني جائع أيضاً.

في ذلك اليوم جاء عمران غاضباً، ورغم أنني أوضحت له بأنني لست من اتخذ القرار برميهم، صرخ بي حتى خفضت رأسي شاعراً بأنني لست سوى خادماً ذليلاً لا أكثر. وفجأة مرت زنجية سودانية ذات أعضاء بارزة جداً. لقد بدا صدرها أشبه بقنبلتين ستنفجران في وجهه، وعندما تجاوزتنا أوقع ردفيها في رأسه الدوار. فتبعها وتحدث إليها. وفي الصباح التالي جاءت وقالت لي أنها أصبحت هي البائعة في هذا المخزن. وأصبح يناديها "هالو شهية"، "صباح الخير يا شهية ". فذعرْتُ وظننْتُ أنني سأعود للتحميل، ولكنه طردها بعدما قالت له:

- أنا إذا لم أتزوج لا أكشف!

وظل الثلج حتى ليلة رأس السنة، حيث رأيت النجوم لأول مرة في حياتي نقية ساهرة كأنها لم تظهر منذ عشرين عاماً.

قصدت المترو، لأرى كيف سيحتفلون في مركز المدينة. إن الإنكليز مرحون مرحون أيام الآحاد والسبت، وفي الأعياد يصبحون مجانين، إن المرء يغدو رائعاً عندما يميل إلى الجنون.. فإذا ما أردت أن تجد الأوربيين بالشكل الذي تحلم به أن يكونوا عليه، قابلهم بعد أن يكونوا قد شربوا أو في ليلة عيد مجنونة، وسيعاملونك كأنك واحد منهم ولاتكن من الحماقة بحيث لا تكون سعيداً لأنهم سرعان ما يغيرون سحناتهم صباح الاثنين.

لقد جاء المترو على سكة مثلوجة، بين أشجار عارية صقيعية، ولكن في الداخل كان الاحتفال برأس السنة قد بدأ، كان قطاراً من الأغاني والصياح والزجاجات المكسورة والضحك والقبل والنظرات الدافئة والتهتك. وكان كلما توقف عند محطة يُصعد شباناً وفتياتاً وآخرون حتى لم أعد أستطيع أن ألاحظ كل ما يجري حولي، وكانت قوارير النبيذ تُرمى من النافذة وتنفجر على السكك الحديدية. أما أغرب فتاة فقد عقدت ضفائر صغيرة ملونة كقرون، وكانت رغم المقاعد المقلوبة وسعار الشبان قد أرخت نفسها على اثنين يشربان البيرة كأنما لا يجري شيء حولها، مغرية عذبة هادئة. وفي البيكادلِّي تقيأ المترو الجميع، حيث كانت تمور بالمحتفلين وبائعي الصفارات والمهرجين، ومن هناك انحدر الجميع إلى ساحة الترافغلر في منتصف الليل، حيث فوجئت

بالشرطة تفتش الجميع قبل الدخول، خوفاً من هجمات قد يشنها ابن لادن. وفي الثانية عشر اشتعلت سماء البرلمان والنهر بالألعاب النارية والهتافات وتلتها القبل والتهاني الحارة، إنك إذ تسترق النظر تجد الشبان يرمقون فتيات لا يعرفوهن بفيض من الحب قبل لحظة الانفجار، وما إن تعلن "بيغ بن" العام الجديد حتى يصافحونهن ثم تلتصق شفاههم بقبلة طويلة من الحنين، وقد يصل الأمر إلى أن يضع أحدهم يده على مؤخرتها فيما لو كان من حضيض المجتمع، أما إذا كانوا من أوغاد الأجانب فإنهم ينقضون على فتاة واحداً تلو آخر بهمجية تبعث على العجب. وقد رأيت تسعة من البوليس يراقبون فتاة ألمانية ينهشها القبلات والعناق مجموعة من بلدان العالم الثالث حتى كادوا يخنقونها. وقد كنت أعتقد أنهم سيقومون بضربهم بالعصي، ولكنهم فهموا الموقف أكثر مني: لقد كانت هي تريد ذلك! وفي النهاية تَقدَمتْ شرطية وأخبرتها بهدوء أنها تعرض نفسها للخطر بسلوك مثل هذا المنحى الشاذ.

وظلت إذاعة "سبيكتروم" تبث تلك الليلة حتى الثالثة صباحاً، وكان فلاح الهاشم في عطلة، وقد سردَتْ حادثة غريبة لست أدري مدى الصدق فيها: إذ التقت مع مطرب عراقي اسمه "نصير شمه" الذي كان يتحدث أنه منذ زمن طويل، عندما كان صغيراً، يشعر أن له أصلاً سومرياً وعندما وصل إلى لندن وجد في المتحف تمثالاً سومرياً طبق الأصل لوجهه. وعندما طال اللقاء تساءلت فجأة: ما أغباني أَوَصَل بي

الأمر إلى حد أن أستمع إلى الراديو؟ في ليلة رأس السنة تلك انتبهت فجأةً إلى أن غياب صوت فلاح الهاشم جعلها إذاعة عربية عادية.

وتلاحقت الأخبار المشؤومة من الوطن العربي، فانفجرت حافلة في دمشق، وأُطلق الرصاص على ابن صدام حسين، وأودى اصطدام طائرتي هيلوكبتر إسرائيليتين في جنوب لبنان إلى مقتل مالا تفعله حرب طاحنة، واجتاح المتمردون السودان من كل جانب، فيما استمر مسلسل السيارات المفخخة اليومي في الجزائر، وظلت الأوبئة والمجاعة تحصد العراقيين، وتتابعت الإنفجارات في البحرين في الوقت الذي استمر الحظر الأبدي على ليبيا، والعذاب الأبدي مخيماً على الفلسطينيين. كانت كل تلك الأنباء تجعل قلب أي عربي صادق يُدمى، حين يقرأ الأخبار الأجنبية في تلك الفترة: فقد تظاهر سكان بلدة سويدية ضد البرد، واكتُشف في أ سكتلندة الاستنساخ، وعثر الأميركيون على بحيرة متجمدة في القمر، وأخذَتْ تُعَد العدة للاستيطان هناك.

وأبرز فوز طوني بلير بتلك الأغلبية الكبيرة مدى يأس الإنكليز من حزب المحافظين، الذي أغرق بريطانيا كسفينة ضخمة فخمة. فما إن أشارت نتائج الانتخابات إلى اندحاره، حتى سارع جون ميجر إلى الملكة ليقدم استقالته ولتُسحب منه سيارته الرسمية ويعود مشياً إلى منزله. ولكن ليشكر ربه – رددت في نفسي – أنه في بلد ديموقراطي، فإن خرج من عند الملكة ورأسه محني، لكنه على كتفيه، لم تثقبه

رصاصة، ولا كسرته هراوة أو قدموه في طبق للحاكم الجديد. أو سحلوه بالحبال في شوارع المدينة.

وفور فوز طوني بلير قرر إيواء الأربعين ألف متشرد الذين يجوبون لندن بلا سقف. وعين لأول مرة نائباً مسلماً، باكستاني الأصل اسمه محمد سوار، ولكن لم تمض عدة أسابيع حتى أُتهم النائب بالفساد، وبرشوة منافسه بدر إسلام الذي أذاع الخبر.

ذلك الصباح، بث لي نبأ فوز بلير صاحب المخزن الأيرلندي المجاور، ولم أهتم فقد كانت الأتوماتيكية قد عجنت روحي بما يكفي لأن أتشبث فقط بالعدد الذي وصلت إليه جنيهاتي. فصُعق الأيرلندي صعقاً الذي طالما حدثني عن السياسة والفن والانتخابات، وها أنا اليوم أفتح المخزن وأدخل كآلة. لقد تذكرت ذلك الصباح المصري الذي قابلته في اليوم الأول وقال لي أن لندن أشبه بأرجوحة دائرية، ما إن ينزل المرء فيها حتى يبدأ بالدوران، ويظل على هذا النحو حتى يموت. إن النفس التي اعتادت على الأدب والفن والحب كان عليها أن تصعد جبالاً لتتأقلم مع العمل الجديد. وقلت في نفسي من يعاشر الناس يصبح مثلهم، تخمد في نفسه الشرارة المقدسة التي تهبه حرية الروح. إن الأحزان الكبيرة تذوب في لندن، ولكن في الغربة يذوب أيضاً الفرح الكبير. لم يكن لدي وقت لكي أحزن كما أنه لم يكن لدي وقت لأفرح، كان علي في كلا الحالتين أن أسرع فأحلق ذقني وأتناول الطعام ثم أنام باكراً لأهرع سريعاً في الصباح راكضاً حتى لا أتأخر عن المترو المزدحم، وأعمل كآلة حتى لا يلاحظ صاحب العمل أنني إنسان، ثم أعود لأغسل

ملابسي وأسرع وأسرع، فإذا ما تريثت قليلاً لأفكر ما هي هذه الميكانيكية الرهيبة يهددني الوقت بأن علي أن أنظف أسناني في هاتين الدقيقتين حتى أستمع إلى الأخبار في العاشرة تماماً بحيث أنام في العاشرة والنصف لكي أستيقظ في السادسة دون أي تأخير، أما في مترو الصباح المزدحم فإن عقلي لا يكون قد نشط بعد بحيث أفكر بالوجود والمقارنات والأشياء الدقيقة والمرهقة، على العكس تجد عيني تراقبان بلهفة المقاعد حتى إذا فرغ أحدها، أقفز إلى هناك قبل أن يتمكن أحد غيري. أما في مترو العودة فيكون عقلي مرهقاً بليداً خان نزاهته طيلة عشر ساعات، والآن هو أشبه بالميت وها هو الطعام الرتيب من جديد ثم الإسراع في.....

وعندما جاء الربيع، وجدت نفسي ذات يوم جالساً أنتظر القطار، وكانت أشجار المحطة قد غدت خضراء والريح متماوجة، وكنت من التوتر والكد بحيث سألتني نفسي: هل تشعر بالأطيار فوق الأغصان الخضراء، هل تحس بالنسيم الرقيق كما في الماضي، وأجبت لا.. لا أشعر بشيء وإنني متبلد كحجر من كلس.... كم بقي من روحكَ الحرة أيها الفتى؟.. الآمال الكبيرة.. الحب الكبير... كان في الأيام الغابرة لكَ قلب.. وداعاً أيتها الحقيقة، أترى ماريا لا تزال راضية عني؟ أترى لو رأتني الآن لعرفتني؟ لقد ضللْتُ الطريق إلى المحبة، وقد تمر بجانبي ولا أعرفها. وفتحت كتبي تلك الليلة وقرأت أشعاري حتى اغرورقت عيناي بالدموع متعجباً: هل أنا من كتب تلك القصائد الملتهبة، أية روح مجروحة، أية مشاعر لم يصل لها أحد، أية قوافٍ غريبة عن

الأرض؟.. وكان عزائي الوحيد ثانيةً عبارة نيتشه: لتنم الفضيلة.. لتنم... فستستيقظ أكثر نضارةً.

ولكن كم أنستني تلك الأتوماتيكية كآبتي القديمة! إن انفصالي عن أحزان العالم الثالث كان معجزة لن أتمكن من وصفها، فقد كان مزاجي يتبدل باستمرار، يتهدم وينبني بسرعة لا تسمح لي بتأمل ما يطرأ على حياتي بدقة. وللأسف كما أنه لم يكن هناك مجال للفرح أو الحزن في دولاب المدينة الأتوماتيكي، أيضاً لم يكن هناك وقت لليأس أو الأمل. كان كل جنيه يدخل جيبي يشعرني أن شيئاً ما قد انخلع من روحي، ويؤكد لي رغم ذلك أنني مصون من الحزن لأنني آلة. وكنت كل يوم أقول يجب أن أغير حياتي ولكن لا أجد أية فكرة فتجرني طاحونة الأيام من جديد. وحين حل الربيع اكتشفت أنني لم أعد قادراً على الضحك كما أنه لم يعد ممكناً أن أبكي أبداً!.

ومررت بشجرة ياسمين ولم أتوقف.. يا إلهي... ذلك الصباح المشمس الأول.... كان علي إفراغ الشاحنة من سبعين كرسياً قديماً استغنت عنهم شركة مجاورة، وإصلاح ثلاث خزائن، وتنظيف براد، وترصد الزبائن، وكان حسين ينتظرني منذ الصباح. وفجأة جاءت زهرة، وكان وجهها وسامة مضيئة كشعاع من شمس ذلك الربيع، وكانت ترتدي ثوباً يناسب إشراقة الصباح، يشبه ذلك الذي يرتديه الملائكة في اللوحات القوطية، يدور حول عنقها بهاء شال أبيض جعلها أشبه بآلهة المحبة. وحين استدارت لمسَ طرف شالها خدي فأوقفْتُه

بكفي، وقبلْتـه، وعنـدما رأتنـي أفعـل ذلـك، مالـت إلـي فرحـة خجولـة وسألتني لماذا أقوم بذلك فقلت:

- لا أدري.. شعرت أن الملائكة ترفرف فوق شالك

فحدقَتْ بي كطفلة مبهورة فقلت:

- هل ثمة عطر على الشال؟

فلوحَتْ لي بأن لا.

- إذن ما سر الدوار الذي انتابني؟

- لعله دوار الحب.

ثم تمعنَتْ في عيني وقالت:

- نعم إنك تحبني.

وظلت مشدوهة، ثم أردفَتْ ببراءة:

- قبلني إذن هنا!

ودفعَتْ بإصبعها إلى خدها، ففعلت، ولكن حسيناً صاح بي:

- سمير.

فأكملنا تفريغ الشاحنة:

- لقد سلبتْكَ عقلك ابنتي.

- نعم إنها توقع الدوار في الرأس أكثر مما يفعله الربيع.

- سأوصيها بألا تأتي.

- لن تفلح.

- أنت تعلم إذن أنها تكسر عظامي بنظرة.

- الحب لا يكسر عظام أحد.

- هذا هو جيل لندن.

- طوبى لكَ، لقد نشأ منك من تجاوزكَ

عند انتهاء النهار لم أنسَ أن أتوقف عند شجرة الياسمين، وكانت ظلال السحب تركض فوق الأبنية وتركض الريح وحبات الطلع، حيث أخرجت ورقة ودونْتُ قصيدة انتابتني كحلم آسِر أسميتها "زهرة". وطويت الورقة كما سيطوى العمر ذات يوم وألتقي بها في سديم ما، وراء مدار ما، بعد الموت، لاشيء مؤكداً أكثر من هذا.

ومضت ستة أشهر ولم يحبني أحد، فأحببت ماجدة الرومي وغادة السمان ونوال السعداوي، وكتبتُ رسائل عدة إلى غادة وأهديتها كتبي ولم يجبني أحد، لم أدري إن كانت رسائلي تصل إلى سلات المهملات أم أنني أراسل الأشباح.

عزيزتي غادة

كلما قرأتُ كتاباً جديداً لكِ أجسر أن أتمنى أن تحط حمامة بيضاء على نافذتي حاملةً رأيك في الكتب التي لا أدري إن كانت قد وصلتك، ولطيلة تحديقي من النافذة رأيتُ مرتين حمامة قادمة من بعيد في أحلامي، وعندما كنتُ أستيقظ وأجد النافذة خالية لم أكن أحزن، أو تبلل خدي الدموع، فأنا أعلم أن الأحباب الحقيقيين يتلاقون بعد الموت.

عزيزتي غادة

يقول نيتشه "الجميع يظن أن الثمرة هي هدف الشجرة، ولكن لا أحد يفكر بالبذرة".... هكذا كل من يقرأكِ تسحره كلماتكِ ولكن من ذا الذي يفطن إلى قلبكِ..؟!

✯✯✯

عزيزتي

يا لقصائدكِ يا غادة، لاشك أنك لا تزالين تختلجين وأنت تسيرين في الطرقات فيهطل علينا جوهركِ كالندى، فلِمَ يؤرقك أنك لا تملكين سوى سيارة صغيرة وشقة أصغر، إن زجاج روحك من الشفافية حتى ليمزقنا.

✯✯✯

وكانت قد ذكرَتْ في إحدى دورياتها في مجلة "الحوادث" الصادرة في لندن، أن العمر قد ضاع وراء المحبرة. لقد كانت تلك الساحرة أول من أيقظ قلبي على المرفأ الوحيد للإنسان: "الحب"، وبعيداً عنه فهو في خضم المحيط، سعيد فقط بقدر ضياعه بحثاً عنه، وأدهشَتْ شبابي بجمالية ذلك الضياع: إننا غير متأكدين من شيء! وليست عبادة الألواح القديمة سوى جمود للعقل الذي كان اخترع تلك الألواح.

في أول أيام نوار، دخل رجل إلى المخزن مثل كذبة، وبيده حقيبة داخلها فكرة، لقد غير ذلك الرجل حياتي دون أن يدري.

لقد سألني أين المعلم؟ فأشرت إلى المكتب. وهناك فتح الحقيبة وأخرج ولاعة وساعة وصليباً وقمصاناً ونظارات وبراويزاً، وأخذ

يساوم. فاشترى منه حسين منبهاً وصرفهُ. فأوقفنه عند الباب، وجعلته يفرغ الحقيبة من جديد. وأباح لي أنه يشتري هذه البضائع الصينية من بائعي الجملة قرب محطة "ليفربول ستريت"، ويبيعها من باب إلى باب ومن مخزن إلى مخزن. فأحسست أنه قد آن الأوان لتوديع الباكستاني.. وأن القطار قد صفر.

لقد كان أكثر ما آلمني في ذلك المخزن أنه كلما ازدادت مهارتي كانت أرباحه تزيد أكثر، أما أنا فلا يتبدل حالي... انتظرتُ حتى نهاية الأسبوع.. تقاضيت أجرتي.. واختفيت.

الفصل الثالث

----------1---

لاشيء يشرح الصدر مثل شمس فوق نهر، وأشرعة بيضاء ومدى أزرق. لقد انهمر الربيع فاتناً ساحراً، لقد لفحت النسائم جسدي، ولوحت الشمس وجهي، ولم أكن مستعداً لذلك الفرح، لقد حولَتْ عجلة العمل الروح إلى جسد، ومع ذلك انفجرت ضاحكاً، لم يكن هناك أية نكتة، وإنما كمن يبتسم للطبيعة: أنا سعيد.. أنا جد سعيد.

كان نهر التايمز يشطر مدينة العشرة ملايين إلى قسمين، وبحثْتُ عن تلك الضفاف التي لا يوجد فيها أجنبي واحد، فوجدت نفسي أستأجر غرفة في "ريتشموند"، حيث يشعر المرء نفسه في قرية هادئة على ضفتي نهر وهو في قلب لندن. والحقيقة أن المدينة قد ابتلعت القرى المحيطة بها، وهذا هو سر غزارة الأشجار والمروج والحدائق.

وفي تلك المناطق تغدو تنورات الفتيات أقصر، وعدد العشاق المتعانقين في الشوارع أكبر، وتظهر الأثداء أكثر مما هي عليه في مركز المدينة حيث شعوب ياجوج وماجوج تصول وتجول.

لأول مرة أتنفس بعمق الصعداء، لأول مرة أشعر أنني في بريطانيا. فبعد أن بدت بلداً ملامحه مطموسة، أهله متبلبلون، لاتجمع سوى المصالح بين أفراده، غدت علاقاتهم أوربية كاملة، قائمة على شرف خالص، ومواثيق صادقة. شوارعه نظيفة يتوقف عليها عازفو الكمان والهارب فيخيم هدوء روحاني على كل شيء، كما لا يحدث أبداً في كيلبرن.

وأخرج الربيع رواد الحانات إلى الأرصفة فكنتَ تجد طاولات المقاهي منثورة في كل مفرق، والضحكات تتبعثر مجاناً تحت الشمس الذهبية، والشجر الذي أزهر بمائة لون قد امتزج مع ابتسامات الوجوه البيضاء والتماع الضفائر الذهبية. وفي مسيري بحثاً عن غرفة وسؤالي المارين كنت أُدهش لطبيعة الإنكليز الهادئة المختلفة تماماً عن توتر وسط المدينة.

لقد مضى بي المترو إلى "ريتشموند" بين شجر أخضر بعد أن كانت تنتهي نوافذه بالضباب...! بالله كيف يجري القطار ويجري معه الغيم والمدى البعيد، لقد تأملت السُحب البيض في بحر السماء الزرقاء، واستولى علي النعاس، والنوافذ تحف بالزهور والأوراق والثمار، وفجأةً أحسست أننا نعبر جسراً لأن صوت العجلات قد تغير، فاستيقظت ونظرت إلى النهر فرأيت أشجار الضفة بيضاء غريبة، فذُهلت! هل تساقط الثلج..؟ ثم أدركت أنها ليست سوى أشجار لوز، فهبطت، وهرعت نحوها، فإذا بالريح تلفح أزهارها فتطير باتجاهي، وكأنما الشجر هبَّ لمعانقتي هو أيضاً، وكان

الرصيف وزجاج السيارات المتوقفة قد امتلأ بالأوراق البيضاء الندية، فما إن سرتُ تحت ذلك الشجر حتى شعرت بنفسي للحظات كأنني في الأبدية، وأخذ الزهر يتساقط علي كندفات الثلج، ولأول مرة منذ أتيت تمتمت آه.. ماأسعدني.. إلى يميني النهر وإلى يساري الرياح، تُقبلني الشمس وتُكللني زرقة السماء.

ورأيت صياداً فجلست قربه لأنني كنت أعلم أنه صامت كالصخور، ومر رف من العجائز يلبسن قمصاناً زهرية وتنورات بيضاء على دراجات ومضين مرحين من حنان ذلك المشهد. ودفعَتْ ريح غربية سحابة منخفضة ضئيلة فاجتازت السماء تحت الشمس الساطعة، سارت ظلالها فوق الروابي، من تلة إلى حقل حتى غطت النهر، مرت فوقي وضاعت بعيداً.. بعيداً.. ومرت امرأة تمسك بأعنة أربعة كلاب صغيرة، وما إن تقدمَتْ حتى أطلقتهم فأخذوا يجوبون العشب الأخضر حولي. واقترب أصغرهم من المياه ففرت الطيور السابحة محلقة، ولكن بطة كبيرة نفخت في وجهه فتنحى.

ثم عدت إلى الجسر، ونظرت إلى ريتشموند، وتابعت مسيري، وفجأة أحسست أنني أدخل مدينة جديدة غير لندن، تبدت على ضفة النهر بيضاء تحدها الزوارق وورائها التمع صليب كنيسة، وأنا الذي كنت أعتقد أنني أعرف لندن كلها أحسست أنني لا أعرف شيئاً.

هبطت الجسر من الاتجاه الآخر، وسرت على رصيف النهر فظهرَتْ لي شجرة كبيرة لاتزال عارية، وأناس يجلسون في الشمس على أدراج تنحدر إلى المياه، وشيئا فشيئا بدأت أقترب من البيوت، ولم

يكن هناك أي أجنبي، لا أسمر ولا أصفر لاسود ولا هنود، بدت لي بلدة بريئة منفصلة.

----------2---

ولكن يا للأسف، كان آجار البيوت ضعف ما كنت أدفعه في كيلبرن، استأجرت غرفة بمئتين وخمسين جنيهاً بينما كنت أدفع مائة وخمسين، واشتريت طبقاً هوائياً وهاتفاً نقالاً وتلفازاً، وأخذت أنصت إلى الأخبار من محطة الجزيرة، بينما كنت أتسقط أنباؤها من محلات الآخرين، ونسيت فلاح الهاشم، وسلخت أسبوعاً في الباركات وبيدي كتاب متنقلاً من دهشة إلى حلم ومن نشوة إلى عيد، وكان من يراني يأخذه الذهول وكأنما يرى لأول مرة عربياً بيده كتاب، أو يسألني أهذا هو القرآن؟ وكأنما ثقافتنا لا يمكن إلا أن تكون بدائية، وكنت أشعر بالثقة: لقد كسبت من عملي السابق ثلاثة آلاف جنيه، وتعلمت لكنة الشارع، والبيع والشراء، وفهمت عقلية الناس، وحصلت على عمل جديد.

وفي اليوم السابع اشتريت حقيبة وقصدت "ليفربول ستريت"، مررت بالـ city لأول مرة، التي تُعد نواة لندن الأصلية، وهي أحد أكبر المراكز التجارية في العالم كله، حيث عدد البنوك الأمير كية

فيها أكثر من عددها في نيويورك، وفيها أكبر بورصات العالم في مبنى من 26 طابقاً، وسرت بحذاء كاتدرائية سان بول الضخمة، وعندما انتهيت بمحطة "ليفربول ستريت" وجدت فتياتاً يرقصن بالميني جيب دعاية لسيارة بجانبهن، ويوزعن قصاصات مجانية لسحب سيجري عليها، فملأتُ واحدة ووضعتها في الصندوق، وعندما هممت بالخروج وجدت أخريات يوزعن مجاناً معجوناً للأحذية، ودعتني إحداهن لوضع قدمي، وأخذت تلمع لي الحذاء مجاناً، شارحة ميزاته ممتنة بأنني وهبتها من وقتي.

اجتزت الطريق، ودخلت عدة مخازن تبيع بالجملة شتى ضروب البضائع الصينية، متناثرة حتى محطة "Aldgate east" حيث فوجئت أن مجرد مترو واحد يصلها بريتشموند خلال 45 دقيقة.

اشتريت ساعات يدوية وساعات منبهة وألعاب أطفال وأشرطة كاسيت وفيديو، ومكنة حلاقة كهربائية وقمصاناً وولاعات: ملأت الحقيبة بخمسين جنيهاً، واكتشفت أن البضاعة تخرج رخيصة جداً من المعمل، وتنقلها من تاجر إلى تاجر هو الذي يضاعف السعر بشكل محزن، وعلى أي مجتمع متحضر أن يجد حلاً عاجلاً أم آجلاً، غير شيوعي، لهذه المسألة.

مضيت أبيع على غير هدى، الآن فقط شعرت أنني أنطلق إلى لندن، حزام الحقيبة معلق على كتفي، وبين يدي بعض السلع.. يا إلهي.. إن

أفرغت الحقيبة سأعود إلى الحجرة في المساء وقد ربحت مائة جنيه كاملة، أي أربعة أضعاف ما كنت أتقاضاه في مخزن الباكستاني، وحسبتهم على العملة السورية فوجدت أنهم مرتب موظف في شهر.

واجتاحت السماء غيوم مسرعة باردة، وأخذَتْ ريح فجائية تهزأ بتنورات الفتيات، وأصبح بإمكان المرء أن يشعر بأنفاس الربيع حتى في أنفاق المترو.

واقتربت من إحدى المحلات فقالت لي البائعة بجفاء:

- ياسيد.. لايوجد نقود في المخزن

فخرجتُ صامتاً.. يبدو أنها ارتابت بي إن لهجتي غير مطمئنة.. يجب أن أعرف كيف أدخل.. وكيف أبدأ الكلام... وكيف تكون لي روح مرحة.

وما إن وطئت المخزن المجاور حتى ابتسم لي صاحبه.. لقد ظنني زبوناً.. وسرعان ما تبدلت سحنته وقال لي:

- لا.. لا نريد شيئاً.

فدخلت المخزن الذي يليه وكان فيه رجل مكفهر وفتاة هادئة وراء مكتب فمضيت إليها، وما إن عرضت عليها مقصدي حتى صاح من ورائي بغضب:

- اسمع.. كيف تتجاوزني أنا وتذهب إليها..؟

وطردني شر طردة، وقلت لابأس إنها ليست سوى البداية وسأتعلم عاجلاً أم آجلاً، وحاولت الولوج إلى محل مجاور ولكن البائع كان

يتحدث بالهاتف فمضيت إلى آخر، وكان صاحبه يقف عند الباب، فقال لي: "لا".. طويلة وكأن الشراء ليس من شيمه. فتركته ودخلت التالي، فما إن رأتني البائعة حتى حدست مابي وطردتني بحركة عنيفة من يدها دون أن تنطق.

ومضت ساعة والحقيبة لا تزال مغلقة، واقتربت من مطعم صغير كتب عليه "سمك – بطاطا مقلية" وكان ثمة أتراكاً يعملون وراء مصطبة، أخذوا يتأملون بضاعتي ويسألونني بلا اهتمام عن الأسعار، ولم يشتر أحد شيئاً، فخرجت محبطاً.. ولكن ماء وجهي عاد إليه.. ثمة من كلمني على الأقل! ودخلت متجراً فيه عدة بائعات، ولما علموا مابي أغرقوا في الضحك وأشاروا إلى الباب فخرجت. ومضيت إلى بار فاقترب مني النادل وسألني عما أحب أن أشرب فأخبرته ماأحمل في حقيبتي فأجاب مشيراً بيده:

- حسناً.. هل لي أن أعرفك على هؤلاء الناس.

فالتفت، فوجدت رجلي شرطة ورائي يحتسيان الجعة، فغمغمت بكلام غير مفهوم وأسرعت بالخروج فلم يتبعاني، ورغم ذلك فقد ركضت حتى تجاوزت الشارع.. يا إلهي... يجب أن أنتبه... الفيزا المكسورة يجب أن تكون هاجساً... ومِلتُ إلى مخزن بجانبي فقال لي التاجر:

- لقد فتحت المحل لأبيع لا لأشتري.

وفي المخزن الذي يليه قام صاحبه بحبور من وراء المكتب وصافحني، ولكنه شعر بضيق عندما عرضت عليه بضاعتي وقال:

- اسمع، لا تعد مرة ثانية..

فعمدت في المخزن المجاور إلى القول فوراً بأنني تاجر شنطة وفيما إذا كان يرغب بشيء فأجابني:

- لا أحب أن يزعجني أحد في مكان عملي.

فمضيت إلى حانة مجاورة فوجدت على الباب قد كتب "ممنوع إدخال الكلاب"، لا أعلم لماذا ترددت في الدخول وكأن ذلك يعنيني، ثم تساءلت هل أنا كلب فعلاً؟ لماذا أشعر منذ أتيت وكأنني احد الكلاب الشاردة؟ هل المرء بدون وطن يصبح كلباً؟ أو بدون نقود؟ هل كلب مع نقود يغدو انساناً؟ ولم أنا بلا نقود وقد سلخت العمر بين الكتب؟ وكان هدفي أن أصير ملاكاً وليس كلباً. وأعرضت فعلاً عن الدخول إلى الحانة.. إنني كلب.. لست سوى كلب... كان الشعور بالدونية قد ازداد حدةً بعد الذل الطويل الذي أذاقني إياه الباكستاني، وسألت نفسي: أتظنني الحياة سهلة لفقير من بلد فقير؟ وتابعت سيري فوجدت نفسي أمام حلاق باكستاني فدخلت وأريته ما معي بقصد أن ينتبه الزبائن، فقال لي وهو يقص ويستفهم عن الأسعار وعيناه مثبتتان في شعر الزبون:

- هل تبيع الحشيش؟

- لا.

- حسناً.. بع حشيشاً ذلك أربح.

وقال أحدهم هازئاً:

- الآن أربح من بيع الحشيش بيع النساء.

وقال آخر:

- نعم إجلب نساء من أوروبا الشرقية وبعهم في أوروبا الغربية.

وعرض علي الحلاق أن يقص لي شعري مقابل ساعة منبه على أن أنتظر دوري. فتركته ومضيت. فلمحت تاجرة زنجية تلبس الميني جيب وقد لفّتْ ساقاً إلى ساق وعندما أقحمتُ نفسي عارضاً عليها بضاعتي دون إذن قالت:

- أنت تعلم أنني لا أريد... وقد أتيت فقط لتنظر إلى فخذيَّ!

وكانوا يفرحون كثيراً عندما أغادر بسرعة ويودعونني ببسمة، وتجنبتُ المحلات الملآى بالزبائن فالبائع المشغول سيتطير من رؤيتي.. وأخذت الحقيبة نزداد ثقلاً ونفسي تزداد يأساً. واكتشفت أن أضعاف أضعاف مراحيض المدينة لن تكفيني فأخذت أبول في الزوايا والأركان، واكتشفت أن الهواء الطلق خير مرحاض، وفجأة صرخ بي أحدهم:

- ماذا تفعل هنا؟

- لا عليك مطر كثير قادم اليوم.

- مطر!

- حسناً للضرورة أحكام!

وتواريت، فوجدت نفسي أمام بائعة في مخزن لبيع التحف القديمة، فقلت لها أن لدي ساعات منبه بثلاثة جنيهات فقط وعندي ولاعات وألعاب أطفال وقمصان وكلها لا يمكن أن يوجد مثلها في السوق فقالت:

- اعطني سبباً واحداً يمنع وجودها في السوق.

وقالت لي نادلة:

- اغلق الباب بهدوء وأنت خارج.

وقال بائع:

- ليس مسموحاً شراء أي شيء نحن تحت الكاميرا.

وظل آخر صامتاً طيلة حديثي وكأنه ينتظر مني أن أخرج، ثم زجرني فجأة:

- NO

فاختفيت. واحتاج أحدهم فعلاً إلى ولاعة، وعندما حاولت بيعها تعطلت في يده فتركني وانصرف. وأصبح الاحتفاظ بمزاج جيد صعباً بعد كل ذلك المسير، لم يعد الكلام يخرج من حلقي، فجلست على عتبة بيت، مذكراً نفسي بمرارة أنني قد أكون ارتكبت خطأً فادحاً بتركي مخزن الباكستاني. وكانت رياح الطرقات تبعث في النفس وحشة غريبة مما يجعل المرء يؤثر أن يأوي إلى البيت قرب الموقد، ولكنني فطنت فجأةً أن الحلاق الباكستاني وبائع البطاطا المقلية التركي الوحيدين الذين على الأقل اهتما بما أحمله، وتذكرت

أن الذي تعلمت منه كان يبيع كيلبرن وليس وسط الإنكليز، فعمدت فوراً إلى مغادرة الـ City إلى "مانَر هاوس" حي المهاجرين.

وفي المترو عدت إلى موالي القديم: لو أنني تعلمت التجارة بدلاً من نظم القصائد لكم كان ليكون معي الآن؟ وتذكرت ذلك اليوم البعيد الذي ذهبت فيه إلى "مانَر هاوس" أبحث عن عمل بين الغرباء، نعم إنه يبدو منذ ستة سنين لكثرة ما خاض عقلي في أمور جديدة، ثم تذكرت مقولة لغابريل غارسيا ماركيز: إذا أردت أن تبيع شيئاً يجب أن تتعلم ثمانية لغات، أما إذا أردت أن تشتري فلا يهم أن تكون أخرس.

وعندما وصلت قطعت الطريق الطويل نفسه المحاذي لسياج البارك ولم يكن مثلوجاً هذه المرة، على العكس فقد دخلت وبِلت بين أشجار ربيعية ونسائم وبلابل مغردة، وعندما وصلت إلى تلك الحوانيت التركية والكردية والقبرصية أحسست أنني أراها للمرة الأولى. ولم يشعر أحد بالانقباض لرؤيتي، لقد بدا وكأن بائعاً متجولاً شيء مألوف لديهم، وكانوا يسألونني من أين أنا؟ وفيما إذا كنت متزوجاً أم لا، ومنذ متى وأنا مقيم في لندن؟ كانوا يهضمون فكرة أن أبيع وليس كالإنكليز يتطيرون من أبسط مخالفة... وإنك إذ تتعامل مع تركي تحتاج إلى طاقة أقل مما هو عليه فيما لو كان أوروبياً، حيث عليك أن ترتفع بفرحك ورقتك وتعابيرك إلى المزاج الذي هو عليه. ولم يزهق نفسي سوى روح المساومة عندهم فإذا قلت لهم ستة يعيدونك إلى الخمسة، وإذا قلت لهم سبعة يعيدونك إلى الخمسة، وإذا قلت لهم ثمانية أيضاً أو

تسعة، أما إذا قلت عشرة فيتوقفون عندها ولا يتزحزحون وكأنما الأمر بالأعداد وليس تقييماً للسلعة. واكتشفت أن علي أن أكذب ثلاثة أضعاف عدد الأشياء التي في الحقيبة في اليوم الواحد حتى تفرغ، ليس ذلك فقط بل على البائع ألا يرف له جفن وهو يسرد عن بضاعته أو تتهدج نبرة صوته، ولذا يجب أن يعترف لنفسه مسبقاً أنه إنسان كاذب أو أن يؤمن أن الربح بأية وسيلة هو شريعة حلال، ولكن ما جلب لي كرباً لا نهاية له هو أن البضاعة الصينية التي اشتريتها ليست سوى شبه معطلة في صناديقها أو على وشك أن تتعطل خلال أسبوع لا أكثر.

ودهمني المغيب دون أن أحقق شيئاً يذكر، وكان في مقدوري الذهاب أبعد ولكن شدة الريح وكآبة الشوارع جعلاني أشعر بالوحشة، فعدت مبكراً إلى الغرفة، وجلست في السرير وأنا أرتعش، لقد تسرب الهواء البارد إلى ضلوعي.. وقد اكتأبتُ ذلك المساء حتى كدت أتقيأ سماً، شاعراً أن الناس قد بصقوا علي. لقد كان عدد المرات التي بِلت فيها أكثر من عدد السلع التي بعتها. إن التاجر الذي لا يبيع جيداً خلال يومه لا شيء يمكن أن يفرحه عندما يعود إلى البيت.

----------3---

ومرت ثلاثة أشهر، وضعت خلالها خريطة دقيقة لم يكتشفها أحد غيري في لندن، حددْتُّ فيها بعد تجارب مضنية المناطق التي يمكن أن يباع فيها بشكل جيد، وتشمل خمسة بالمئة من المحطات الموجودة على خريطة المترو، لا تزال تثير دهشتي حتى الآن، فالأجانب موجودون في كل مكان ومع ذلك فلكل حي من الـ 95% الباقية سبب مختلف يجعلهم ينفرون من الشراء.

ورغم أن لندن تعرف الكثير من البائعين الجوالين - فقد كنت ألحظ في الوجوه أن ثمة من مر عليهم قبلي، والقليل يملك تصريحاً ويدفع ضريبة - إلا أنني الوحيد الذي اكتشف أسلوباً جديداً: لا تبع إلا شيئاً واحداً.

فقد وجدت أن بعض السلع تنفذ بسرعة بينما تظل أخرى من يوم إلى يوم، فتكوَنَ في ذهني فكرة البحث عن سلعة واحدة مذهلة جديدة لم يرها أحد، أو زهيدة تصدم المشتري بسعرها، فإذا حقق هذا الغرض الصفتين فإن البيع سيكون سريعاً خاطفاً. وصرت أختبر كل قطعة أشتريها، أدقق فيها قبل وضعها في الحقيبة، بحيث لا تتعطل على الأقل

أثناء البيع، وأسميتها "بضاعة النصابين من الصين"، وكنت متشككاً في الأيام الأولى: هل يمكن أن أبيع بائعاً هو نفسه يغش الآخرين؟ ثم بدأت تتكشف لي الدوافع فيما بعد يوماً بعد يوم.

بشكل عام الناس ميالون إلى أن لا يشتروا، فما إن يرونك حاملاً الحقيبة حتى يلوحون في كفهم: "لا نريد.. لا نريد شيئاً" فإذا لم تبع شيئاً يثير استغرابهم لن يشتروا، حتى بعد أن يشترونه رخيصاً جداً يتساءلون ما فائدته لي، لماذا أضعت النقود؟ لم أكن قد خططت لشرائه، لقد غافلني البائع... ولكن بعضهم يظن أنها سلعة نادرة أتيت بها من مكان خفي، وآخرون يشترون ليوفروا على أنفسهم مشقة الذهاب إلى المخزن، وغيرهم يشترون لعذوبة اللسان، أو شفقة، وكثيرون يشترون لتقطيع الوقت وفتح جلسة. وفي المقاهي التركية يشتري أحدهم ليوهم لاعبي الورق أنه يملك، أو عندما يشعر أنه منبوذ وفي طريقه ليغدو مهملاً في مجلسه ويريد أن يثبت أن له قيمة، ويغار آخر فيشتري، ويعتقد ثالث أنها فرصة لا تُفوت وإلا لِمَ اشترى الأولان؟. وبعض الأتراك يشترون لتحقيق الذات وفرض الكلمة عبر المساومة وليس لحاجتهم إلى السلعة، ونسبة كبيرة يشترون بعد أن يقتنعوا مني بأنها سلعة رخيصة جداً، ثم يكتشفون بعد أن أغادر أنهم ليسوا بحاجة إليها على كل حال. ويكون الدافع عند بعض الزنوج فطرياً غريباً لا يُفسر، من قبيل ما دمت أنا أبيع فلزاماً عليهم إذن أن يشتروا، أو إذا كنت أنا البائع فهم حتماً المشترون بلا مفر، وغالباً ما يشتري الزنوج يومي السبت والأحد، حيث يكونون قد تقاضوا مرتباتهم الأسبوعية، فتجد أحدهم يفكر: نعم.. في جيبي نقود..

إذن أعطني هذا الشيء!. وذات يوم قالت لي إحداهن في صالون للحلاقة النسائية، وقد دخلتُ وفي حقيبتي نوع من المقصات يقطع كل شيء، وكانت تنظر إلى شعرها في المرآة يُصبغ فلمحتني:

- بكم؟

- ثلاثة جنيهات فقط.

- أعطيك أثنان.

- قليل.

- اثنان ونصف.

- لا بأس.

- حسناً.. ما هذا؟

وقامت والصبغة على شعرها إلى الجزدان، إنها حتى لا تعرف ماذا أبيع.

- إنه مقص يقطع كل شيء.

- حسناً خذ.

وأعطتني النقود فقالت أخرى منتظرة:

- هل نستطيع أن نقص به كل ما نريد؟

ولأن الأجنبي غالباً لا يفهم سوى المعنى المباشر للجملة قلت بلهفة:

- أجل.. كل شيء... كل شيء.

فضحكن بخبث من وراء المرايا، وقالت إحداهن:

- لماذا تريدين أن تقصي ذلك الشيء؟

وقالت أخرى برجاء:

- من فضلك هل تستطيع أن تعود في مرة قادمة؟ لا أحمل نقوداً اليوم.

وكأن هذه السلعة ليست موجودة إلا عندي، أو كأن لندن قرية منقطعة. وأعطتني رقم هاتفها وعنوانها. وقالت أخرى:

- بعني المقص بجنيهين فقط

- لا أستطيع.

فحزنَتْ كثيراً وقالت:

- إنني لا أملك غيرهما.

- لا أقدر.

والحق أنني لم أعد أستطيع تخفيض السعر بعدما بعت الأول، فقالت غاضبة:

- سأرمي على مقصاتك السحر فلا تبيعها أبداً.

وقامت إلى الحقيبة بشعوذاتها ورمت السحر. فخرجت وقد عرفت السبب الذي يجعل اللبنانيين يذهبون إلى إفريقيا القاحلة ويصبحون هناك أثرياء. ومن كثرة ما بعت الزنجيات تعودت عيناي على سوادهن وأصبحن هن فقط يثرن رغائبي، لقد كن يدغدغن بي شعوراً جنسياً عندما تموج أعضائهن ومكوراتهن أمامي في صالون ضيق من الحلاقات والمنتظرات.

أما التركيات فبدون أضعف من الزنجيات في اتخاذ قرار الشراء دون استئذان أخ أو زوج بجوارهن. ورغم أن صالوناتهن تبدو أكثر ترتيباً ولا تبعث على الاختناق إلا أنني كنت أحس وكأنما أيديهن مغلولة لا يجرؤن على صرف جنيه واحد.

وبدا لي الهنود من الصعب بيعهم مهما كنت ماكراً، ومرد ذلك فقر تاريخي عميق مدقع ملازم لتقتير هائل بقصد النهوض. ولا أعرف لماذا لا يسلك الزنوج نفس المسلك، لا أستطيع أن أقول سوى أن طباع آسيا تختلف عن الأخرى الإفريقية. فالصينيون مثلاً هم الجالية الوحيدة التي لا يمكن لأحدهم أن يشتري أبداً، فإن كنتُ قد بعت بعض الهنود بعد تخفيض السعر إلى أدناه أو بخسارة فإنني لم أبع صينياً واحداً، ولا أظن أن يعود ذلك إلى التربية الشيوعية لأن بيع جالية هونغ كونغ أو سنغافورة أو تايوان يبدو أيضاً من المستحيلات.

أما العرب فكثيراً ما بعتهم، عدا المصريين فدائماً كان يخيل إلي أن جيوبهم مستحيلة. وكنت أكلم العرب بالإنكليزية ولا أكشف عن نفسي، مما جعلني أميز بين طبيعتهم وبين باقي الشعوب التي أحتك بها عند كل خطوة وفي كل مخزن بحيث لا يأتي المساء إلا وأكون قد تحدثت مع مائتي رجل وكذبت مائتي مرة.

ويوماً بعد يوم غدا لسحنتي وحركاتي شكل بائع، وأصبحوا يتنبأون ما أريد منذ دخولي، وبدا كأنما مُنحت تصريحاً بدخول كل المحلات إذ لم يعد أحد يرتاب بي، وأصبح وجهي أكثر تأثيراً على الزبون، واكتشفت خمسة عشر منطقة أغشى كل يوم واحدة أو أكثر ثم أعود إلى الأولى. وكان صباحي يبتدىء دائماً في المترو الذي يقلني من ريتشموند إلى الـ City بالسؤال الكبير التالي: ما الذي سأشتريه اليوم وفي أي مكان سأبيعه؟ إن المرء يتقاضى دائماً ثمن الفكرة أما الجهد والصبر فأمرهما هين. وهطلت أمطار نوار وأخذت تهب من الأطلسي رياح تتوغل عميقاً

في المدن والقرى البريطانية أبطأتْ حركتي وجلبَتْ أزهار أيار وحولَتْ المدينة إلى جنة. وكنت أفعل واكتشف كل ذلك بغير حب، وليس كالماضي عندما كنت أنظم القصائد وأفتش عن التعابير السامية، لقد كنت أشعر بالخلود يختفي وراء الفن. أما الآن فإن أيامي تُستهلك في الباطل، وتلك الطريقة في البيع تدمي روحي، أخدع المشترين وأكسر القلوب مغنياً في الشوارع:

بيع قلبك

بيع حبك

شوف الشاري مين[1]

لقد وجدْتُ نفسي في أحياء الملونين من جديد! أعيث فساداً أكثر بكثير مما يفعله أهالي كيلبرن: فيزا مكسورة، غش، تهرب من الضريبة، إيذاء أمزجة الناس، ولم يكن لي عزاء سوى اكتشاف الأحياء الجديدة والباركات والبشر. ومع ذلك ظلت تلك الحقيبة في مخيلتي من أجمل الذكريات أعلقها على كتفي طائفاً جالباً النقود دون رئيس فوقي يأمرني، متعرفاً على أناس كثيرين متعلماً أشياء كثيرة، متذكراً كيف كانوا يبيعون في المهجر البرازيلي. كان علي أن أظل مبتسماً هادئاً إذا أردت أن أستمر في البيع، رغم ثقل الحقيبة وطول المسير، لقد علمتني تلك المهنة السعادة وفنون الرياء، وتعلمت أن الناس مختلفون اختلاف بصمات أصابعهم، ورحل الربيع مخلفاً في جيبي ألفي جنيه أخرى.

1- عبد الحليم حافظ.

وفي حزيران أنهت بريطانيا استعمارها لهونغ كونغ، ورفرفت الأعلام الحمراء فوقها، وسط هلع هائل من هروب رؤوس الأموال بعد أن أصبحت في قبضة الديكتاتورية الصينية. وفي حزيران أيضاً توفي الشيخ الشعراوي، وبينما انشغلت معظم المحطات الفضائية العربية في تغطية الحدث ساعات طوال، وخرج في الجنازة عشرات الآلاف من المصريين، عثرْتُ في اليوم التالي على جريدة "الإنتبندنت" متروكة في مترو، وقد نشرَتْ مقالاً قالت فيه أنه كتب قصيدةً رفع فيها الملك فاروق إلى مصاف الآلهة، ثم فعل الشيء نفسه مع عبد الناصر، وأيدَ ختان البنات ومنع النساء من العمل، وكتب مقالة ضد الكهرباء لأنها تُحيل الليل إلى نهار وهذا ضد مشيئة الخالق!.

وفي حزيران انحدرت أغصان الأشجار أكثر فأكثر فوق الطرقات، فكانت تصطدم بزجاج الطابق الثاني للباصات الحمراء، وأصبح النهار طويلاً حتى أن الشمس لم تعد تغيب حتى العاشرة. وكلما اشتدت حرارة الشمس كانت الأثداء تتعرى والأرداف تبرز، والقامات البيضاء تتلألأ، ولعابي يسيل، كانت الإنكليزيات يلبسن "الميني جيب" تحت المعاطف في زمهرير الشتاء، وعندما حل الصيف تفشى في المدينة كلها ولم تظهر الزنجيات أقل وسامةً أو أناقة، بل بدت مكوراتهن أكمل استدارةً، وتبدى الزنوج بالقمصان الداخلية: عضلات مفتولة، وقامات ممشوقة رياضية. وشوهد كثير من الناس عراة فوق اخضرار العشب وأصبحت الشمس تشرق تارة فيغدو الجو حاراً وتغيب طوراً فتصبح الريح قارسة. فما إن تخرج إلى النهر في يوم عطلة حتى تشعر بالجنة فعلاً

على ضفته، حيث تتمايل الفتيات بين الشبان، وتتلألأ الصدور البيضاء بين الخضرة الكثيفة التي صبغت المياه: كؤوس البيرة، ضحكات الشبان، وداعة النسيم وهدوء الغروب، تجعلني أدمدم إنها ليست سوى جنة... أنا خارجها رغم أنني داخلها!.

أما شارع العرب فقد عجّ بالسياح الخليجيين، إن هذا الطريق المسمى "إدجوار رود" يمتص كل ما نهبه المسؤلون العرب من الأمة في السنة التي انصرمت: ملاهي، حانات، مطاعم، عاهرات، دور سينما، بضائع، بنوك، عقارات للبيع، سيارات للأجرة، مكاتب للشحن. وفي شهر آب تظن نفسك في الرياض أو المنامة، إذ أن النساء المتشحات بالسواد فلا تظهر سوى عيونهن من الكثافة بحيث يخيل لعربي أنه عاد إلى وطنه. ويزداد مدخنو النارنجيلة فتجد الطاولات موضوعة على الأرصفة، وفي الأماكن الممنوعة. في ذلك الشهر بالذات كانت حبوب الفياغرا الأميركية الزرقاء لا تزال محظورة في بريطانيا - قيد الدراسة - وقد جنيتُ من بيعها في ذلك الشارع ألفاً ومائتي جنيه. وفي شهر أيلول بعدما اختفى الخليجيون عدت إلى تجارتي القديمة.

----------4---

أصبح النهار يُعتم بسرعة، وغيم الخريف البارد عاد يطوف فوق لندن: أيلول.. والبيوت المبللة الكئيبة، الظلال الباردة والريح المتماوجة.. يا إلهي.. ما هو هذا الذي يسمى الفصول الأربعة..؟

إنه الخريف من جديد، هل تغير شيء؟.. إنني لا أزال أدور... البط على المياه.. الحمام الحزين، أوراق خريف صفراء فوق خضرة العشب.. يا إلهي كيف تمارس الطبيعة كل عام أربعة طقوس؟..... والإنسان يدور ويدور.

وظلت أرباحي لا تتعدى ما كنت أتقاضاه في مخزن الباكستاني حتى حلت عتمة ذلك الخريف، وأخذ الضياء يتلاشى مبكراً. وذات يوم أثناء مروري بالبيكادليّ بعد نهار مرهق، وفي ظلام الغيم الداكن، لمحت قرب المطعم السويسري رجلاً وراء مصطبة غريبة تضيء وتشتعل كشجرة عيد الميلاد، متلفتاً يمنةً ويسرة بخوف، فاقتربت لأرى ما الذي يبيعه هذا الرجل، فاكتشفت ولاعات زجاجية قد حُشر تحت ألوانها

مقاومات دقيقة، ولمبات بحجم رأس الدبوس، زرقاء وحمراء وصفراء. تغذيها بطارية صغيرة جداً، فإذا ما قمت بفتحها أضاءت وانطفأت كأعجوبة. وكان قد وضع ستة منها مختلفة الألوان فأخذت تشتعل وتنطفىء مثل مهرجان، فأمسكتها بيدي غير مصدق ثم رفعتها إلى عيني فطار صوابي، إنها السلعة التي تحقق المعادلة الأصلية: مذهلة، جديدة، رخيصة، ضئيلة. فإذا ما استعملها مراهق في حانة معتمة ستجعل قلب حبيبته يثب! ومما زاد في جنوني كيف كان الشبان والفتيات الإنكليز يتخاطفنها منه مقابل ثلاثة جنيهات بسرعة عجيبة حتى خيل إلي أنه قد يبيع مائة ولاعة في ساعة، ولكن لسوء حظه سرعان ما ظهر شرطيان فولى الأدبار، مخلفاً علبة كرتونية على الأرض طُبع عليها: ولاعة ديسكو للحفلات - لاس فيغاس - فوضعتها في جيبي وقد أدركت على الفور أنها صينية وأن سعرها لن بتجاوز جنيه ونصف بالجملة في الـ City، ولم أنم جيداً في تلك الليلة.

وفي الصباح الباكر مررت بمحطة "ليفربول ستريت" فوجدتهن يوزعن شوكولا مجاناً، وأعطتني واحدة وشكرتني لأنني أخذتها، وتناولتها وأنا لا أزال أفرك عيني من النعاس، لقد كنت مَوتوراً طيلة الرقاد. وعندما وصلت إلى "بضاعة النصابين من الصين" وجدت سعرها 1.2 جنيه فاشتريت مائة ووضعتهن في حقيبة صغيرة علقتها في كتفي، واتجهت هذه المرة إلى أحياء الإنكليز.

وابتدأت ببائع للسندويش قرب محطة للمترو في أكثر أحياء الإنكليز ثراءً، وفتحتهم على منضدة أمامه مردداً:

- ولاعات للحفلات.. تعمل على البطارية... وتجنن النساء.

فقدم كأنما ليطردني قائلاً:

- يا إلهي.. ما الذي تفعله هنا!؟

ثم تجمد في مكانه، ووضع إحداهن في يده وأغلقها ثم فتحها، وبدا كأنما عبرت في ذهنه فكرة وقال:

- بكم هذه؟

- ثلاث جنيهات فقط.

- ثلاثة فقط!.. هل هي مسروقة؟!

إن كثير من الإنكليز على ثقة من أنهم إذا ما اشتروا شيئاً فإنه سيدوم حتى يملوا منه فيرموه.

ثم أردف:

- حسناً.. لن أترك هذه المعجزة تمر من أجل ثلاث جنيهات.

وذهب إلى صندوق النقود، وتوقفَتْ شاحنة على الباب وهبط منها أحدهم وطلب سندويشاً، وخرجْتُ وقد شعرت من أول زبون بتفاؤل، وما إن ولجت خمسة مخازن حتى اشترى ثلاثة منهم، وتبعني السائق بالشاحنة وتوقف في منتصف الطريق وقال ضاحكاً:

- هل معك قداحة تجنن النساء؟!

- إنها فعلاً تفعل ذلك!

- إنهن مجنونات أصلاً!

واشترى اثنتين ومضى، فدخلت صالون حلاقة للإنكليزيات، فشدهن لجرأتي، ولكن ما إن أضأت أربعة ولاعات أمام المرايا حتى أخذت إحداهن تفكر وتفكر وهي تنظر إليهن وإصبعها في فمها مترددة متلفتة حولها كأنما تنتظر إحداهن أن تشتري قبلها لتتشجع، وكنت أقول إذا هذه الفتاة اشترت فإن الجميع سيشترون بعدها... وكأنما يعتمدن على أفكار بعضهن وليس لهن ثقة بعقولهن! أنا مثلاً إذا أردت أن أشتري شيئاً فإنني أفكر أولاً إن كان يلزمني ثم بجودته ثم إن كان سعره يناسب جودته ثم إن كنت أستطيع أن أجد أفضل منه في السوق أو أرخص، ثم بعد ذلك أشتري دون أن أتلفت أو أسأل أحداً: أما هي فبقيت تفكر وتفكر وإصبعها على شفتيها، وكان يناسبني أن أبقي الولاعات مشتعلة مدة أطول ليراها الجميع، وكنت أحدس: لو أنها لن تشتري فإنهن سيطردنني حالاً! وحدثت المعجزة، ها هي فتاة جريئة تخرج النقود فوراً، فينقض الجميع علي بعدها كأنما كبتن الرصانة أطول مما يحتملن، وقالت إحداهن:

- إنها تجنن الرجال فعلاً.

وقالت أخرى:

- إنهم مجانين أصلاً.

وتبعتني إحداهن إلى الشارع واشترت سبعاً وأخفتهن في جيوبها قبل أن تعود.

ودخلت مطعماً تركياً للشاورما وعرضتها فتأملوها ملياً ولم يعرفوا ماذا يُمكن أن يُفعل بها وتركوها ولم يشتر أحد، ثم عرض علي أحدهم طعاماً مقابل واحدة فرفضت وخرجت.

ولمحت شلة من المراهقين واجمين فأضئتها لهم فانفرجت أساريرهم بسرعة، ثم اكتأبوا إذ تذكروا أن جيوبهم فارغة: إن المراهقين يتعكرون للاشيء ويفرحون للاشيء، وعندما أهديتهم واحدة تغيرت سُحنهم كما لا يصدق أحد، وانفجروا ضاحكين وخلفوني سعيداً.

فولجت مخزناً لبيع الأحذية، وكان ثمة شاباً وسيماً في الداخل، فأعدت عليه الديباجة فقال:

- أنظر إلى ذلك الحذاء، إذا اشتريته فإنك تجنن به الفتيات.

فهممت في الخروج فقال لي:

- حسناً.. انتظر...

وصاح:

- كلارا.. كلارا...

فخرجت من الداخل فتاة أكثر أناقةً:

- يقول أنها تجعل النساء مجنونات، تعالي يا كلارا انظري إلى هذه!.... هل جننت!؟.. هل تجعلكِ مثل هذه الولاعة مجنونة؟!

ولكن الفتاة ضحكت فعلاً ما إن وقعت عيناها عليها، مما جعله يردد ممثلاً:

- اللعنة عليكِ.. أنت أصلاً مجنونة

واشترى واحدة، فأخذَتْ ترقص خيلاءً وتوارَتْ بها:

- يا إلهي.. لقد جنت حبيبتي.

ونظر إلي شزراً وأنا ابتلع النقود فقلت:

- ما بك لقد جعلتها سعيدة بثلاثة جنيهات، كم تحتاج أنت لتفعل ذلك!؟

فصاح بفظاظة ممثلاً:

- أنا أجعلها سعيدة مجاناً... بهذا!

وأشار إلى أسفل بطنه!

وفي الطريق أحسست أن البول قد وصل إلى معدتي، لا بل قد شعرت بوخذ في نتوءات القفص الصدري، فبحثت عن زاوية فلم أجد، إن الحي لامع مدهش كأنما نظفْتَ أركانه بيديك، فعرجت إلى مرآب معتم. وحالما خرجت تبعتني من الداخل سيارة "جاكوار" زرقاء فخمة وسدت علي الطريق، فارتجفْتُ، وترجلَتْ بسرعة سيدتان سوداوان أشبه بالأميرات، قالت إحداهن بينما كانت الأخرى تبتسم بمكر:

- لا يمكن أن تفعل ذلك دون تأنيب ضمير

- إن بولي يؤنبني أكثر.

- هذا واضح

وأغرقَتْ الأخرى في الضحك بينما أخرجَتْ الأولى هاتفاً:

- سأستدعي البوليس.. لا يمكنك الإفلات.

وشرعَتْ ترقن الرقم، فاضطربْتُ بشدة، كانت دقيقتان فقط تفصلاني عن سورية، ولكن يد الأخرى امتدت بنعومة إلى الهاتف وأغلقته، ونطقَتْ وعلى سيمائها الثراء الفاحش:

- ما الذي تبيعه؟

- إنها ولاعات للديسكو من لاس فيغاس، سوف أهديكما اثنتين، انظرا...

وعدت من جديد إلى عتمة المرآب، وأشعلتها على مقدمة سيارة، فانفجرتا ضاحكتين حتى أن دموعاً سعيدة ظهرت على أهدابهما، وتناولَتْ الأولى إحداهن وقالت:

- أذكياء جداً

وأردفَتْ الأخرى:

- هل تملىء بالغاز؟

- أجل أنظري.. إنها كلاسيكية...

وأريتها كيف تعبأ ثانيةً.

- حسناً بكم تبيعنا خمسة؟

- بخمسة عشر جنيهاً.

- اخفض لنا السعر.

فقلت كاذباً:

- إنني اربح فقط نصف جنيه في الواحدة.

- وإذا اشتريت عشرة.

- أيضاً لا أستطيع أن أقوم بأي تخفيض.

- حسناً.. وإذا اشتريت ثلاثين.

- سأقوم بتقبيل يدك شاكراً.

- من أجل ثلاثين.

- أجل.

- وإذا اشتريت الحقيبة كلها.

- سأقبل حذائك يا سيدتي.

- حسناً إفعل.

كنت غير واثق تماماً من أنها لا تمزح، فمِلت إلى القول:

مقطع حذفته الرقابة

وعدت إلى محطة "ليفربول ستريت" فوجدتهن يوزعن بصعوبة مجاناً مياهاً غازية ولا أحد يلتفت فأخذت علبة ومضيت، واشتريت من جديد مائة ولاعة وحقيبة صغيرة مما جعل بائع الجملة يقول:

- إنك تربح أكثر مني.. هل بعتهن بثلاثة جنيهات

- أجل.

وتركته متعجباً، وعدت لإكمال الشارع نفسه، فدخلت مكتباً لبيع العقارات، فلم يستطيعوا أن يقاوموا أنفسهم من الضحك، وبعتهم الواحد تلو الآخر، وأنا أرقب المدير يحتقن شيئاً فشيئاً ثم صرخ بي:

- لقد حولْتَ مكتباً إنكليزياً إلى بازار.

فعاد الجميع إلى الرطانة: هكذا تتهدم الحضارة، عندما يزداد أولئك الذين لا يهمهم سوى المال تبدأ المدنية بالتداعي، وعندما يصل أجانب

من العالم الثالث إلى مراكز القرار يبدأ السوس ينخر، وهذا ما حصل بالضبط للحضارة العربية.

ودخلت المطعم المقابل، ولم يكن قد فتح بعد، فوجدت منضدة مفروشة بالجنيهات الإسترلينية، ورجلاً وامرأة يعدانها، ولم يبديا أي خوف لمشهدي، ولكن أنا خفت وخرجت، فنادتني فوقفت بعيداً عنها:

- ماذا تريد؟

فأضأت لها الولاعات على منضدة قريبة:

- حسناً خذ.

ونقدتني ثلاثة جنيهات ثم أردفَتْ:

- اهبط إلى المطبخ فربما يشتري أحد منك.

لقد بدت لي لندن آمنة آمنة على غير ما كان يروجه الشيوعيون في الماضي، لقد مر عاماً وأنا أخرج النقود في الشوارع وأعيد النقود وأبيع وأشتري ولم يتحرش أحداً بي في أفقر الأحياء... ربما تطال المافيا الأغنياء فقط.. لست أدري! هكذا فكرت وأنا أهبط الدرج حيث فوجئت بعبيد لندن تلفحهم روائح الطهي وبخار مكنات الغسيل: أتراك وعرب وهنود، فعرضت عليهم الولاعات فتجمعوا حولي وكأنما ليلتقطوا أنفاسهم، وأخذوا يحدقون بها وهم يمسحون العرق بأكمامهم، ثم ما لبثوا أن تفرقوا، وكأنما هذه الولاعات لا تعني لهم شيئاً.. فصعدت الدرج من جديد وأنا أشعر بالاحتقار لتلك الطريقة التي تمضي بها أيامهم، إن التاجر لا يمكن ألا يحتقر العامل.

وصادفت فتاتين تجلسان في حديقة فملْتُ إلى تجاوزهما، إن الولاعات لا تضيء في نور النهار، ولكن إحداهن وقد لمحتهن في قبضتي يديَ قالت:

- إنك تبيع شيئاً.. أليس كذلك؟

فعمدت إلى إضاءتهن داخل الحقيبة، فابتسمتا وظلتا صامتتين:

- إنك تجعلين الرجال مجانين بها.

- إنني أجعلهم مجانين بدونها.

وضحكتا.

- ثلاثة جنيهات فقط.

- حسناً.. كم معكِ يا كريستين؟

- 22 بنساً.

فانفجرت الأخرى ضاحكة وقالت:

- يا إلهي 22 بنس فقط.

- 22 بنس.

- ولماذا عددتهم؟

وغادرتهما مبتسماً، فصاحتا بصوت واحد:

- sorry

فرميت لهما بواحدة، فتلقفتاها منفعلتين، وأرسلتا لي قبلة في الهواء.

وتفاديت باراً كنت أعلم أن النادل لن يدعني أن أتوقف به لحظة واحدة، لأن النقود التي من المفروض أن يشربوا بها ستُشفط وتغدو

في جيبي، فلا أتذكر أنني بعت شيئاً في حانة من الحانات، إنهم يتطيرون من رؤية بائع جوال كأنما على رأسه قرنان، ولكن فجأة رأيت النادل يخرج وينهمك في استرضاء فتاة جذابة كانت تحاول توديعه، فولجْتُ، وشاهدْتُ صحبة من شبان وفتيات عذبة عذبة، يحتسون البيرة في ضحك حميمي من أعماق القلب. وقلت إن هؤلاء لن يشتروا أبداً، إن هذه المشاعر الأصيلة تزدري كل شيء إلا الحب، ومع ذلك علي أن أحاول، ولكن إن بدأت خطأً سيصبون علي جام سخريتهم وضحكهم، فعمدت على عرض الولاعات على اثنين من الرجال يجاورانهم لألفت نظرهم إلي، ثم انكفأتُ إلى منضدة أخرى تجلس إليها امرأتان بالغتان وأنا أدري أنهما لن تشتريا، فقالت لي إحداهما والسيجارة في يدها:

- إنني لا أدخن

وقالت الأخرى:

- إن هذه الولاعة تدفعني إلى مزيد من التدخين وأنا لا أريد ذلك.

ثم عمدت إليهم قائلاً: هدية جديدة رائعة لعيد الميلاد. فازدروني ساخرين كما توقعت، ولكنني جعلت أطيل لأنني كنت منتظراً أن يشتري أحدهم حتى يغار منه الباقون دون أن يكون لهم حاجة إلى الولاعة، وهذا ما حصل إذ قام أحدهم مظهراً لهم طبيعته كشاب ثري وقال:

- اعطني اثنتان.

وأخرج من محفظته ستة جنيهات ونقدني إياها باستعلاء خفيف الظل، وضحكت من جواره ثلاث فتيات جعلن آخر تتملكه الغيرة، فقام واشترى اثنتين حتى يسحب منه فكرة السخي الوحيد التي ارتسمت على وجهه، فقامت ثالثة من الطرف الآخر للمنضدة وقد تبدى على وجهها أنه لا يمكن أن يشتري اثنان وهي لا تفعل وصرخت بي أعطني واحدة فرميت لها بها في الهواء، ودب المرح في الجميع وهم يرون الولاعات تشتعل في عتمة الحانة وتنطفئ، وأحسوا أنهم لايمكن أن يظلوا سلبيين فبدأوا يشترون الواحد بعد الآخر حتى لم أعد أتمكن بسرعة من عد وإرجاع النقود. ثم قلت لهم عيد ميلاد سعيد وهممت بالخروج، فطلبتني المرأتان المنفردتان واشتريتا وخرجْتُ والنادل لا يزال على الرصيف يقنع الفتاة بأن تحبه.

وفجأة في الشارع ذاك، مرت بجانبي السودانية صاحبة عمران، وكانت تبدو مهزولة نحيفة وقد اختفى ردفاها، فتجاوزتها دون تحية ومضيت. ثم وقفْتُ مذهولاً: بإلهي.. أأتركها لأن مؤخرتها غدت صغيرة؟.. إننا نتعامل مع المرأة أحياناً كشيء ليس له روح!!... وعدت وتمنيتُ لها يوماً سعيداً وانصرفْتُ.

ودخلت فرعاً لشركة "تاتو" المختصة بوضع الوشم على الأجساد، واستملت أحد المنتظرين وكان يضع حلقة في أذنه فاشترى واحدة، وكان ثمة أخر يضع حلقتين فاشترى اثنتين. وقال ثالث بلهفة:

- هل تبيع ثلاثة؟

وكأنني لا أبيع ثلاثة. وفوجئت بأنه قد غرز ثلاث حلقات، وملأ كتفيه بالوشم، واكتشفت أن حليقي الرؤوس هؤلاء يصابون بلوثة عند رؤية تلك الولاعات، وهممت بالخروج ولكن الأول ناداني قائلاً إن ولاعته تقدح ولا تخرج النار فأعطيته غيرها فلم تعمل أيضاً، فجربت ثالثة، فلم تشتعل، كان ثمة مروحة في السقف تدور وتطفئها وكانوا يرقبونني ويضحكون، إن الإنكليز يستعملون المراوح في الشتاء مع الشوفاج! ولكن فجأة خطر ببالي خاطر، أين أجد حليقي الرؤوس؟ أين يتجمع هؤلاء؟ إن بعض الناس لهم في الحماقات طقوس، ولم أجد صيغة منطقية للسؤال فتركتهم ومضيت.

ليس من السهل أن يبتسم المرء بعد إرهاق وتجوال عشر ساعات، ويُظهر رحابة صدر أكثر من الجالسين خصوصاً إذا كانوا إنكليزاً. كان علي أن أعيد تلك الديباجة كل مخزن وكل خطوة، ولم يكن ذلك سهلاً لأن الناس ليسوا دمى، يجب دائماً أن تنبض عبارتك بالحياة. فآثرت العودة تثقل جيوبي أكثر من كيلو غرام من الصرافة. وجلست على السرير وعددتهم فشعرت بالخوف من كبر المبلغ الذي حصلته ذلك اليوم، غير مصدق أن القدر قد منحني إياه، لقد عددت ثلاثمئة جنيه، أي متوسط دخل موظف من سورية في نصف سنة!.

----------5---

لقد كان الحظ يزداد باقتراب عيد الميلاد، ولكن مع هذا فإن ذلك اليوم لم يتكرر أبداً. لقد كان الإنكليز يبدون مرحين خفيفي الظل في منطقة، وجديين لا يطاقون في أخرى، فأحياناً أخرج من حي بأكمله خالي الوفاض، إن أهله يتطيرون لرؤيتي، ولا يلقون أية نظرة، لحد يجعلني أجفل، وقد تكرر معي هذا لدرجة صرت أعرف طبيعة أهل الحي من المخزن الأول، وكان هذا أكثر ما يبعث بي على الضيق في هذه المهنة، إذ أن الوصول إلى حي ثم الخروج منه يستهلك زمناً ثميناً حيث المخازن تقفل عادة في السادسة. وحاولت أن أقوم بدراسة عن المناطق التي يمكن أن يشتروا بها هذه الولاعة مستعيناً بخريطة المترو، فوجدت أنهم يجب أن يشعروا أنها تلزمهم: إنها ببساطة للأغنياء والمراهقين والأعياد والمهووسين. كانت هناك عوامل عدة تلعب دوراً في رفض الولاعة أو قبولها بحيث أحسست في النهاية أن الأمر يحتاج إلى مُنجم. فثمة من يصبحون مجانين لرؤيتها، ومجموعة

تستلطفها، وثالثة تزدريها وتعتبرها غير ضرورية. ولكن ما تفسير أن حياً بأكمله يشتري وآخر يطردني سكانه بالنعال!؟.

قد يعود الأمر إلى غنى الحي، أو فيما إذا كنت أبيع يوم السبت، أو يتعلق باقتراب عيد ما ذلك اليوم. إن ابتعاد حي ما عن المركز يسبب فقدان قاطنيه مرونة الطبع فيقمعون المخالفين بفظاظة، وقد يحدث العكس فالابتعاد عن المركز يجعلهم متلهفين إلى السلع الغريبة!... وفي النهاية كففت عن التفكير بأصناف الناس، وأصبحوا عندي نوعين: أحدهما تلزمه أو تحقق غاياته فيشتري وآخر لا تلزمه فلا يشتري، ولكن ما تفسير أن يشتري حي بأكمله الولاعات الزرقاء وآخر بأكمله يفضل الصفراء!؟.

أما الأتراك والزنوج والعرب والهنود فلم يكونوا يعرفون ماذا يفعلون بتلك الولاعات! التي إذا ما أعجبت إنكليزياً يعطيني ثلاث جنيهات على الفور، أما إذا ما رغب بها تُركي يبدأ حالاً بعلم المساومة.

وصرت أعرف في كل حي أين يتوقف المترو وأين زبائني وأين أبول، واكتشفت أنه كلما ابتعد الحي عن مناطق الأجانب كلما كان سلوك الإنكليز أكثر حرية، كما يُنتظر من أوربيين حقيقيين. بينما وجدت غالبية الأتراك والعرب لا يزالون جائعين جنسياً كأنهم في أوطانهم ومعظمهم لم يمارس الجنس.

واكتشفت أن المراهقين الإنكليز أكثر نقاءً من الشبان والرجال، فبينما كان الكبار يتهمون الجنس الآخر بأنهن مجنونات لم يتفوه أحد من المراهقين بهذا المزاح. وقد قلت لأحدهم "إنهن مجنونات أصلاً أليس

كذلك؟!" فتملكه الوجل: إنه يفكر بالحب فقط. وأعاد آخر الولاعة ناظراً إلي كمتوحش.

وبدا لي الإنكليز أعقل من الفرنسيين في انقضاضهم على الولاعات، أما الإيطاليون فإنهم يفقدون صوابهم حالما يرونها، ولكنهم لا يشترون بسرعة إنهم يدخلون أيديهم في جيوبهم ثم يخرجونها فارغة، ثم يدخلونها ويخرجونها، وكنت أسرع في سحب النقود منهم لأنني أعلم أنهم أفقر من أن لا يغيروا رأيهم. باختصار كان الإيطاليون أكثرهم تلهفاً، وكان الإنكليز يلقون عليهم نظرة ازدراء. أما أنا فقد اعتدت دهشتهم ومساومتهم وبخلهم وصخبهم. فما إن أدخل مطعماً إيطالياً أو تركياً أو هندياً أو صالوناً نسائياً لقص الشعر حتى أعرف ما سيحصل على الفور فأرفع السعر مع التركي المساوم وأختلق النكات مع الإيطالي والإنكليزي، أما الهندي فلم أكن أجد له حلاً.

وكان الإنكليز يقولون عني: تاجر بارع، والإيطاليون ينعتونني بالممثل، بينما يقول الأتراك انني شيطان، أما العرب فكانوا يقولون انني مجنون!.

ورأيت كثيراً من المحلات في لندن راكدة تبث الضيق في صدور المالكين المنتظرين أن تغدو مشهورة: إن أمَرّ شيء هو نظرة انتظار البائع وترقبه للمشترين. وكنت كثيراً ما أصل وهم في اللحظة التي بها على وشك أن يشعلوا سجائرهم، فأشعلها لهم، وأريهم ولاعاتي، فيسألونني عن مهنتي، ويتمنون لو كانوا مكاني يعملون بلا ضريبة.

وقبيل عيد الميلاد بشهر انتهت أحياء ومخازن لندن كلها، ولم يعد بإمكاني بيع ولاعة واحدة، فقررت قرع أبواب البيوت ولكنني اكتشفت أنه عندما أكون في العمل يكونون هم أيضاً في العمل. فأخذت أجوب البلدات حول لندن. وأصبح عملي: قطارات فخمة، نوافذ لامعة، ندفات ثلج، مطر وضفاف للمرح والبيع. وكانت أولى تلك البلدات: برايتون:. وفاض البحر على صدري ما إن ارتقيت الصخور، وتناهى إلى سمعي هتاف طيوره. وتدحرجت نحوي الأمواج الضبابية، وأخذ الزبد يعدو نحوي ويسري الخدر في جسدي. وكانت مياه المرفأ في لون يجعل المرء يغيب عن الوعي، كانت أشبه بمحيط من زمرد فاخر رصاصي متماوج. مشيت على الشاطىء، وكان الموج ينفجر كالمدافع ويبلل وجهي، لقد كان البحر المتوحش يجتاح الشاطىء: رباه كم كان البحر الغريق في الضباب ساحراً..

اقتربت حتى لامس المد حذائي، والتفت إلى الأبنية الفاخرة ثم شدهت للضباب الذي ابتلع البحر بعد قليل ولم يَعد يظهر منه شيء. فعكفْتُ على الشوارع والحقيبة على كتفي، وكلما عبرت مفرقاً لفحني مشهد البحر الشاسع. إن القلب ليدفئه الحب من جديد على ساحل النقاء هذا ويسامح كل البشر.

ومن أول مخزن تنبهت إلى أن إيقاع كلامي السريع وحركاتي اللندنية لا تتفق مع هدوء نفوس أهل البلدة. ولم يكن هناك أحد يساوم، ولا أجانب، ولا سيارات شرطة أو حرس بين المخازن.

وكما هو الحال في لندن سارت الأمور حولها، فبينما بعت كثيراً في برايتون، وساوذإند وبورت سميث"، لم يشتر أحد ولاعة في كامبردج وأكسفورد وبرمنغهام، ولا أعلم فيما إذا كان هذا يعود إلى الرصانة أم إلى الفقر. ولكن بلدات كثيرة بدت فقيرة بما لا يدعو إلى الشك، ففي دوفر أو بينستوك كانوا ينظرون إلي شزراً إلى حد كنت أظن فيه أن الخطوة التالية هي الضرب. وقد كنت أعود راضياً في المساء من كثير من البلدات فيما لو تجاوز ربحي ثلاثين جنيهاً، مكتفياً بتأمل الطبيعة من نافذة القطار، وبالاحتكاك بإنكليز لا يشبهون اللندنيون بحال من الأحوال. أما من مانشستر فقد عدت خاسراً، كانت البلدة أصغر كثيراً مما توقعت، وابتلع القطار لوحده خمسين جنيهاً. وكانت تلك أبعد بلدة قصدتها، فلم أخاطر في الذهاب إلى اسكوتلندا أو ويلز أو إيرلندا، فبلدات تلك الجمهوريات صغيرة كلها، كما أنها على الأرجح فقيرة، وسوف تسلبني المنامة وأجرة القطار كل الأرباح. بينما عدت مرة أخرى إلى برايتون والبلدتين الساحليتين الأخريين ساوذإند وبورت سميث، لقد كنت أشعر أن البحر يجعل قاطنيها في بحبوحة.

لقد مرت أربعة أشهر، بِلت خلالها 1155 مرة، بعت خمسة آلاف ولاعة، وربحت خمسة آلاف جنيه.

وقد كنت أشَد على نفسي ذلك الخريف مما كان الباكستاني عليها، واكتشفت أن كل الناس تريد أن تنتهي ساعات العمل إلا البائع يريد من النهار أن يمتد ويمتد. لقد صارت سعادتي الروحية القديمة

مرهونة بالنقود فإذا بعت جيداً أفرح كثيراً وإذا فشلت أنام كسير القلب. وحتى يوم الأحد لا يجلب الراحة للتاجر، إنه يقول ينقصني كذا وكذا، حسناً سأعوضهم الاثنين. فإذا ما عوضهم فعلاً يعود إلى البيت متعباً مهدوداً ويستلقي قائلاً: يا لحياتي!... كم أنا تَعِبْ... وإنه دائماً متضايق من أن أمواله لا تتضاعف بسرعة خيالية.

وعندما أتى عيد الميلاد انقطعَتْ حركة السير نهائياً تحت نافذتي، وبدا الحي خالياً إلا من المطر والطرق المقفرة المبللة، وحين عبرت إلى النهر تبدت الضفة عذراء كأنه لم يطأها إنسان من قبل، وكان البط الأبيض قد أنهكه الجوع منتظراً عابر سبيل يرمي إليه فتات الخبز، وكان المطر يهطل فوق الأمواج ثم ينقطع ثم يتساقط من جديد.

في يوم العطلة ذاك أحسست كم أنا وحيد وكم أعصابي مهترئة، بحيث خيل إلي أن يومي عطلة متتالين قد يرسلان بي إلى الجنون. لقد كان يخالجني ذلك الشعور كل صباح فأسارع وألقي بنفسي في أتوماتيكية الإرهاق لأنسى، ورغم أنني في الأيام التالية بقيت بلا عمل، إلا أن الراحة تلك كانت تجلب لي مزيداً من الكآبة والهواجس والقنوط. وقضيت أيام الأعياد وحيداً أذهب كل يوم إلى النهر تحت المطر، أتأمل المجرى الداكن والأشجار العارية ثم أعود. لم يكن لأحد أن يقصد النهر في مثل ذلك المشهد العاصف سواي، وكنت غالباً ما أعود إلى سيمفونيتي: لو أنني عملت بالتجارة بدلاً من الأدب لكم كان ليكون معي الآن!؟ وفجأة في مقهى منزو تحت الأشجار الكئيبة على الضفة، لمحني أحدهم أحدق في السماء الكدرة،

فتقدم من منضدتي واستأذن أن يجلس كما لا يفعل الإنكليز عادةً، مطبقاً بقبضته على كأس الخمر الذي خيل إلي أنه بسببها فَقَدَ التفكير بكسر أي حاجز نفسي بيني وبينه أولاً، وقال:

- تبدو أكثر شحوباً من مياه النهر!

فشرحت له قصتي مع الأدب والوطن والزمان! فنظر إلي ملياً، كما ينظر الأستاذ إلى التلميذ، تلك النظرة التي لا أزال أذكرها حتى الآن، والتي جعلتني أفكر أنه ليس سوى إنسان كبير، وقال:

- إذا أخذنا ثمن الفضيلة، يا ترى الفضيلة يظل اسمها فضيلة!؟

وفي ليلة رأس السنة، كنت أطوف شوارع ريتشموند وحيداً حزيناً، وفجأة خرجَتْ من إحدى البارات فتاة مرحة متهللة، اقتربت مني، قبلتني، ومضت.

لقد تحيرْتُ جداً من وجومي أسبوع الأعياد، فالآحاد التي سبقت كنت أقضيها في هناء، ولم أعمل بها كما كنت في مخزن الباكستاني: فتارةً أذهب إلى متحف فكتوريا والبرت، وأتأمل التحف الإسلامية المصنوعة من الخزف والعاج والزجاج والرخام. بينها مصابيح سورية من القرن الثالث عشر، ومحراب مزخرف لجامع مصري. تُنبىء عن حضارة عربية بكل أزاهيرها. فقد قال لي ألماني ذات يوم متأملاً سجادة إيرانية قديمة: أنتم علمتمونا كل شيء بما في ذلك علم الإلحاد! فدُهشتُ، فأردف: أجل.. إن الرازي وجابر ابن حيان وابن المقفع وابن رشد والمعري والمتنبي وابن الراوندي والكندي وبشار بن برد وأبو

العتاهية.... إلخ[1] وهم الأعمدة الأساسية للحضارة العربية أول من طعنوا بالأديان كلها، وقد فقدنا صبرنا في القرون الوسطى، وأحرقنا مترجم كتب ابن رشد واضطهدنا كثيراً من المترجمين. يقال في الشرق الآن أن الإلحاد يأتيهم من أوروبا والحقيقة أنه أتى أولاً من عندكم. وتورطتُ معه في نقاش طويل حيث قضينا ذلك الأحد سويةً، وأهديته ولاعةً فقال لي: لا أعتقد أن هذه ستجنن أحداً في ألمانيا!.

وتارة أخرى أذهب إلى شارع الصحافة، وأتأمل حانة الديك التي كان يرتادها تشارلز ديكنز، وأجلس في الحجرة المسماة باسمه. ثم أتابع سيري في ذلك الشارع الذي ارتبط اسمه بتاريخ النضال من أجل حرية الصحافة، فأتأمل النصب التذكاري Griffin، وغرفة الأمير هنري، وكنيسة القديس دنستان، وأمر من أمام مبنى جريدة "الديلي تلغراف" و "الديلي إكسبريس" ووكالة رويتر.

وكثيرة جداً تلك الآحاد التي قصدت فيها سوهو، وتأملت تمثال شكسبير وشارلي شابلن ومنزل كارل ماركس ونيوتن... ثم تقودني قدماي إلى العاهرات اللواتي كنت انصحهن بألا ينفقن نقودهن حتى يتسنى لهن في النهاية أن يتحررن.

وذات أحد مررت من أمام مخزن محمد الفايد فدهشْتُ إذ لمحت مكتبة الكشكول وقد أُغلقت، وكُتب على الزجاج:

1- راجع تاريخ الإلحاد في الإسلام لعبد الرحمن بدوي.

معظم الكتب التي تكتب لا تُنشر

ومعظم الكتب التي تُنشر لا تباع

ومعظم الكتب التي تُباع لا تقرأ

ومعظم الكتب التي تُقرأ لا تفهم

رياض نجيب الريس

وتبعتها مكتبة "الوراق"، حيث قال لي صاحبها وهو عراقي إن العربي لا يفكر إلا بنصفه الأسفل. ولما اعتبرت الجواب دعابة أخذت أفتش عن السبب الحقيقي فكان أحدهم يتحدث عن كثرة المحطات الفضائية، وآخر يقول إن السياح العرب هم الذين كانوا يشترون الكتب الممنوعة، وعندما انحسرت القراءة في بلادهم كفوا عن الشراء هنا أيضاً، ولكنني ظللت أبحث عن السبب الحقيقي لأن أوضاع العرب في لندن ليس سيئة كما هي الحال في البلاد العربية، ما فائدة أُسر بأكملها تأكل وتشرب وتنام ولا تقرأ!؟! ولكن أحدهم قال لي أنهم أضحوا في حالة يائسة لأن أقاربهم في الوطن أصبحوا يائسين.

وحتى مساء الأربعاء كنت أغشى منتدى "كوفة" العراقي في حي "الماء السلسبيل"، حيث غالباً ما أصل متأبطاً الحقيبة منهكاً قبل الذهاب إلى الغرفة، ولم تكن تلك الندوات العربية التي تجري هناك أكثر ديموقراطية من الأخرى التي تعقد في الوطن العربي بحال من الأحوال. فكنت نادراً ما تجد محاضراً أو شاعراً أو كاتباً يتعرض بجرأة لحلول جذرية لمسائل السياسة أو الجنس أو الدين. فإذا صادف ذات

أربعاء معرض للرسم، فإنك تجد الصالة خالية والفنان يجلس وحيداً، والقلة الذين حضروا يحتسون الشاي ويلتهمون البسكويت بعيداً عن شر ذلك الفن.

ومع هذا ففي أسبوع الأعياد ذاك لم أنعت نفسي سوى بالرجل المريض، فقد كنت إما متمدداً منقبضاً على السرير أو في هذيان لا ينقطع على الضفة. أينما تحط ذاكرتي لا تلقى سوى الألم. وقبيل رأس السنة وصلت إلى نتيجة: إن العمل فقط كما قال باسكال يُنسي المرء بؤس الوجود. وفي تلك الليلة نمت وأنا أقول "لا تستقيم لأحد". ورغم أن الحشرات تأتي في الأحلام للمرهقين من العزاب، رأيت أنا حشرة ولكن بحجم فأر تحت سريري، ووجدت نفسي أحاول جاهداً قتلها فلا أصيبها، ثم فوجئت بنفسي أضعها في كيس شفاف ثم أستيقظ. على الأرجح أن كتلة الذكريات التي دهمتني قبل النوم، غلفها عقلي الباطن عندما فشل في أن يمحوها بكيس باسكال.

----------6---

وما إن هلَّ العام الجديد حتى وضعت الحقيبة على كتفي من جديد وعدت إلى تجارة النسيان، وقد ازددت تقتيراً ولم يعد يهمني سوى العدد الذي وصلت إليه نقودي. فكنت إذا ما وجدت خمسة بنسات ملقاة في طريق أنقض عليها وأضيفها إلى نقودي، وبدلاً من دفع عشرين بنساً أبول في الزوايا والأركان أوأنتظر حتى أصل إلى البيت أوإلى مرحاض مجاني. ورغم أن الحقيبة انقطعت ست مرات إلا أنني لم أبدلها، وكنت أرتقها وأصلحها باستمرار أثناء جلوسي في المترو. وصرت أعود إلى المخازن التي كنت بعتُ فيها في العام الفائت وقد انخفض ربحي، ورغم أن معظم الولاعات كانت تتعطل بعد فترة قصيرة، إلا أن الشركة باعت كل ما لديها، وفي العام الجديد ظهرَتْ ولاعات قوية أنيقة فاخرة، كأنها يابانية أو ألمانية، وانخفض سعرها بسبب انهيار الأسواق في آسيا ذلك العام، وأدى

ذلك إلى كساد البضاعة الإنكليزية التي تُصدر إلى الشرق البعيد وانخفاض قيمة الإسترليني. ثم تبع ذلك تدهور أسعار النفط مما أدى بدوره إلى نقص كبير في أعداد السياح الخليجيين الذين يزورون لندن: إن من يعتقد أن الغرب يريد شراً ببلدان العالم الثالث مخطىء مائة في المائة فأي تدهور اقتصادي في تلك البلدان يجعل السلع الغربية تبيت في المستودعات.

وجاء يوم لم أعد أتمكن من تصريف الولاعات أبداً، لقد ملّ منها زبائني وغدت معروفة، وكنت أقول إن كل النقود التي أقبضها هي ثمن للفكرة فأين لي بفكرة جديدة. ومرت شهور عدت فيها إلى تجارتي القديمة البطيئة في أحياء الزنوج والأتراك. وفجأة عثرت على قلم حقيقي ولكن ما إن تضغط مقدمته حتى يفاجئك بأنه ولاعة أيضاً، وتقدح منه النار، وأحب هذا القلم الإنكليز والأجانب بنفس الوقت، وعدت أطوف به لندن والبلدات التي حولها، ولكن ببيع وربح أقل مما فعلت ولاعة الديسكو. فقد ظل نهاري لا يتجاوز الأربعين جنيهاً إلا نادراً، كما أن التراخي بدأ يسيطر علي كنتيجة لوهن أعصابي، فصرت أقابل الزبائن بفتور معتمداً على خبرتي، ثم تحولت إلى حمار حَرِن لا يمكن جره بسهولة. وكان النهار يبدأ دائماً بقلق الصباح كأنما أنا مقبل على امتحان: هل سيتوارى النهار قبل أن أبيع أم لا؟ وفي المساء أعود غالباً منفرج الأسارير. ورحل

الشتاء ومضى الربيع وهرب الصيف ثم حل الخريف، وانقضت أربع سنوات لا أتذكر منها شيئاً، فلم تكن حياتي أفراحاً بحال من الأحوال، كما لم أكن بحالة بهيمية: لقد كنت آلة.

كنت أنا رب العمل وأنا العامل بنفس الوقت، وقد استعبدت نفسي كما فعل بطل دوستوفسكي ذاك الذي قتل إلهه: إن الاستقامة، وحب الحقيقة وحب الحكمة، والتضحية في سبيل المعرفة، قد حل مكانها كلها عبادة العدد. إن آلهتي القديمة وآمالي الكبيرة والحب الكبير والفرح الأعلى أصبحوا مجرد ذكريات: لا يجب على المرء أن يقتل إلهه لأن العقل لم يكن يوماً في التاريخ بمعزل عن الإسطورة.

صرت أرنو إلى واجهات المخازن بدلاً من الطبيعة، صرت أهتم بغلاف الكتاب بدلاً من مضمونه، صرت أنظر إلى عجيزة الفتاة بدلاً من بريق عينيها. وكان الشيب يزداد في رأسي سنة بعد سنة فأتساءل هل أصبغه؟! ولكن لمن؟ إنني لا أكاد أعرف أحداً بل إنني أتعامل بجفاء أوتوماتيكي مع كل من لا يدفع لي، حتى أن المسيح قد يمر بجانبي ولا أعرفه.

وبعد أربع سنوات شعرت أن المدينة بمساحاتها الشاسعة وأناقتها ومنتزهاتها: تكاد تخنقني. وكنت غالباً ما أتذكر المصري الذي صادفته في اليوم الأول وهو يقول: "لا تستعجل إن لندن أشبه بمرجوحة أتوماتيكية تدور، ما إن ينزل المرء فيها حتى يبدأ بالدوران، ويظل على هذا النحو حتى يموت".

يقال أن الخرفان تضيع إذ تمضي في قضم العشب دون أن ترفع رأسها، وهذا ينطبق علينا عندما نركز انتباهنا كلياً على ما هو أمامنا مباشرةً فنعجز عن رؤية الحياة بالمنظار الصحيح. إن النظرة الشمولية للعالم، إن الإحساس العميق بجوهر الكون هو الذي يدفع إلى سعادة غير آلية. أما حينما يكون العدد فقط هو المنشود، من الطبيعي أن نضيع كالخرفان وتصبح لندن أضيق من علبة كبريت.

إن صاحب الشخصية التسويقية لا يحب ولا يكره، فهذه المهنة تتجنب الانفعالات الوجدانية، بخيرها وشرها لكيلا تتعثر المهمة الأساسية للشخصية التسويقية ألا وهي البيع والمبادلة. حيث عدم وجود أية ارتباطات عاطفية بأقرب الناس لها يجعل لا أحد قريباً منها ولا حتى هي ذاتها.

يقول عالِم النفس الأميركي "أريك فروم" عن الشخصية التسويقية: أداء الوظيفة على الشكل الأكمل في الظروف المفروضة، تجعل تجاوبها مع العالم تجاوباً عقلياً أساساً، بعيداً عن الوجدان والعاطفة. والعقل بمعنى الفهم صفة قاصرة على النوع الإنساني، أما الذكاء التحايلي، بلا تعقل، يمكن أن يكون خطراً بحيث يمكن - من زاوية رؤية عقلية - أن يدفع الناس في اتجاهات تؤدي إلى الدمار الذاتي.

لقد بتُّ أخشى أن أظل وحيداً، إنني ما إن أتوقف عن العمل يوماً حتى يعصف في رأسي الجحيم، ومع اقتراب عيد الميلاد الرابع انتابني ذعر لا عهد لي به من قبل، وسيطر علي رعب لم أكن أدري

كنهه حينها، فتساءلت متحيراً: هل أنا مجهد من العمل أم من اقتراب العطلة!؟ بت لا أعلم: هل أنا تعب أم لا، هل أستريح من العمل أم أستريح من الراحة؟ أ يهما أفضل لأعصابي؟ ثم أعود فأهذي: ليس هذا سوى نتيجة طبيعية لضغط العمل ولكن لم تنتابني الهستيريا عندما أفكر بالراحة!؟ إن لورنس يقول من يسعى وراء المال يقتله السم ومن يسعى وراء الأخلاق يقتله الجوع.

وما إن دخلَتْ أيام الراحة السبعة تلك حتى سقطت في الفراش لا أبارحه.. لا أريد أن أفتش عن أي شيء.. لا أريد أن أرى المدينة.. لا أريد أن أحلق ذقني.. لا أريد أن أستيقظ..... إن تلك النفس المرهقة من قرع الأبواب أصبحت عازفة زاهدة خائفة من صدود جديد.. وبدأ النوم يجافيني من اليوم الأول، ولم أعد أعلم متى أستيقظ، صرت مجرد جثة على السرير.. أندب وأنتحب وتذرف عيناي الدمع.. حتى بت أسمي نفسي "الشاعر الميت".

وأخرجتُ صورة ماريا وقبلتها، وعيناي تغرورقان، بدا لي طيفها يطوف حول المكان، وأنني سمعت تنهيدة عميقة في الهواء، فنهضت جزعاً: أتُرى لا تزالين راضية عني؟!.

وبدت لي سورية أنشودة ساحرة من الصفاء والذكريات: من حلم إلى حلم هكذا كانت حياتي، من وردة إلى حب، من قصيدة إلى بحر، فعدْتُ، وظلْتُ عامين أُعالَج بعقاقير الاكتئاب. وفجأة أخرجْتُ ورقة

وكتبت. ولكن يا للعجب! لقد اكتشفت أن هذا العدد هو الذي جلب الحرية في النهاية!.